

٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري

فوائد شهر صفر

كتبه الفقير إلى عفو ربه

أ. د. خالد بن عبد الغفار آل عبد الرحمن

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ

ح خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن ، ١٤٤٥هـ

عبد الرحمن ، أ.د. خالد عبد الغفارعبد الله
فوائد شهر صفر الجزء الثاني من سلسلة كتاب ٣٦٠ فائدة علي مدار العام الهجري./ أ.د. خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن
ط ١.- الرياض ، ١٤٤٥هـ
١٢٥ ص ! ١٧ x ٢٤ سم.- (٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري)

رقم الإيداع : ٢٠١٢٧ / ١٤٤٥
ردمك : ١-٣٨٤٠-٠٥-٦٠٣-٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



إهــداء

إلى زوجتي وأبنائي الأوفياء الذين كان لهم الفضل بعد الله عزَّ وجلَّ بتشجيعي ودعمي المتواصل لإعداد هذه السلسلة من الفوائد التي تُحفِّز المسلم والمسلمة على العمل الصالح واغتنام أيَّام العمر فيما ينفع ويُرضي الله عزَّ وجلَّ.



مُقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين. فبين يديك أخي القارئ الكريم الجزء الثاني من كتاب "٣٦٠ فائدة " على مدار العام الهجري، وهو كتاب يضمُّ فوائد ودروسًا تُحفِّز المسلم والمسلمة على العمل الصالح واغتنام أيَّام العمر فيما يَنفع ويُرضِي الله عزَّ وجلَّ. تمَّ تقسيمها على أيَّام السنة الهجريَّة بحيث يستطيع القارئ أن يبدأ بالقراءة من تاريخ اليوم الذي عزم أن يقرأ الكتاب فيه، ويقطف من ثمرات وفوائد ذلك اليوم. وفي كلِّ يومٍ يجد القارئ جملة من المقتطفات التي تدور حول موضوع واحد قد يكون له ارتباط بذلك اليوم أو الأيَّام أو الشهر تحديدًا وقد لا يكون. ولكن الموضوعات تُشكِّل في مجملها خلاصة الفوائد والخواطر والدروس التي تُعين المسلم على التجارة مع الله والعمل الصالح الذي يكون بإذن الله زادًا له في الدنيا ونجاة له في الآخرة برحمة الله ومِنَّته وفضْله. وهذا الجزء مُخصَّصٌ لفوائد شهر صفر، أسأل الله أن يكون فيه النفع والفائدة وحُجَّة لكاتبه وقارئه وكلِّ مَن أعان على نشْره وتوزيعه.

كتبه الفقير إلى عفو ربِّه

أ.د.خالد بن عبد الغفَّار آل عبد الرحمن

drkhalid63@gmail.com

الرياض

شهر صفر ١٤٤٥هـ

فهرس فوائد شهر صفر



١ صفر

لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ

عن أبي هريرة– رضي الله عنه– عن النبي ﷺ قال:" لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ" رواه البخاري [١].

يقول العلَّامة ابن باز– رحمه الله–: "والمعنى إبطال ما يعتقده أهل الجاهلية من أنَّ الأشياء تُعدي بطبعها، فأخبرهم ﷺ أنَّ هذا الشيءَ باطلٌ، وأنَّ المتصرِّف في الكون هو الله وحده، فقال بعض الحاضرين له ﷺ:" يا رسول الله؛ الإبل تكون في الصحراء كأنَّها الغزلان، فيدخل فيها البعير الأجرب فيُجرِبُها، فقال ﷺ: فمَن أعدى الأوَّل؟" رواه البخاري [٢].

والمعنى أنَّ الذي أنزل الجَرَبَ في الأوَّل هو الذي أنزله في الأخرى، ثم بيَّن لهم رسول الله ﷺ أنَّ المخالَطة تكون سببًا لنقل المرض من الصحيح إلى المريض بإذن الله، ولهذا قال ﷺ:" لا يُورِدَنَّ مُمْرَضٌ على مُصِحٍّ" رواه البخاري ومسلم [٣].

والمعنى: النهْيُ عن إيراد الإبل المريضة ونحوها بالجَرَبِ ونحوه مع الإبل الصحيحة؛ لأنَّ هذه المخالَطة قد تُسبِّب انتقال المرض من المريضة إلى الصحيحة بإذن الله، ومن هذا قوله ﷺ:" فِرَّ من المجذوم فرارَكَ من الأسد" رواه البخاري [٤]، وذلك لأنَّ المخالَطة قد تُسبِّب انتقال المرض منه إلى غيره، وثبت عنه ﷺ أنَّ انتقال الجذام من المريض إلى الصحيح؛ إنَّما يكون بإذن الله، وليس شيئًا لازمًا.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢٦) برقم (٥٧٠٧) كتاب الطِّبِّ. باب الجذام. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيَّامه= صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقِّق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مُصوَّرة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢٨) برقم (٥٧١٧) كتاب الطِّبِّ. باب لا صفر. وهو داءٌ يأخذُ البطن. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٤٢) برقم (٢٢٢٠) كتاب السلام. باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول، ولا يُورَدُ مُمْرَضٌ على مُصِحٍّ. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١ هـ)، المحقِّق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت.

(٣) رواه البخاري (٧/ ١٣٨) برقم (٥٧٧١) كتاب الطِّبِّ. باب لا هامة. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٤٣) برقم (٢٢٢١) كتاب السلام. باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول، ولا يُورَدُ مُمْرَضٌ على مُصِحٍّ.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢٦) برقم (٥٧٠٧) كتاب الطِّبِّ. باب الجذام. ولفظه: وفرَّ من المجذوم كما تفرُّ من الأسد.



والأحاديث في هذا الباب تدلُّ على أنَّه لا عدوى على ما يعتقده الجاهليون من كون الأمراض تُعدِي بطبعها، وإنَّما الأمر بيد الله سبحانه. إن شاء انتقل الداء من المريض إلى الصحيح، وإن شاء سبحانه لم يقع ذلك.

ولكنَّ المسلمين مأمورون بأخْذ الأسباب النافعة، وترْك ما قد يُفضي إلى الشرِّ.

أمَّا قوله ﷺ:" ولا طيرة" فمعناه: إبطال ما يعتقده أهل الجاهلية من التطيُّر بالمرئيَّات والمسموعات ممَّا يكرهون، وتَردُّهم عن حاجتهم، فأبطلها النبي ﷺ، وقال في الحديث الآخر:" الطِّيَرَةُ شِرْكٌ" رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي(١).

وقال ﷺ:" إذا رأى أحدُكم ما يكره فليقل: اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلَّا أنت، ولا يدفع السَّيِّئات إلَّا أنت، ولا حول ولا قوة إلَّا بك" رواه أبو داود(٢).

وروي عنه ﷺ أنَّه قال:" مَن ردَّتْه الطِّيَرَةُ عن حاجته فقد أشرك، قالوا: وما كفَّارة ذلك يا رسول الله؟ قال: أن يقول: اللَّهُمَّ لا خيرَ إلَّا خيرُك، ولا طير إلَّا طيرُك، ولا إله غيرك" أخرجه أحمد(٣).

---

(١) رواه أبو داود في سُننه (٤/ ١٧) برقم (٣٩١٠) كتاب الطِّبِّ. باب في الطِّيَرَة؛ وابن ماجه في سُننه (٢/ ١١٧٠) برقم (٣٥٣٨) كتاب الطِّبِّ. باب مَن كان يُعجبُه الفألُ ويكره الطِّيَرَة. الترمذي في جامعه (٤/ ١٦١) برقم (١٦١٤) أبواب السِّيَر. باب ما جاء في الطِّيَرَة. بلفظ:" الطِّيَرَةُ مِنَ الشِّرْكِ". سُنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥ هـ)، المحقِّق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا- بيروت. سُنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية- فيصل عيسى البابي الحلبي. سُنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩ هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي– مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥ م.

(٢) رواه أبو داود في سُننه (٤/ ١٨) برقم (٣٩١٩) كتاب الطِّبِّ. باب في الطِّيَرَة؛ والحديث ضعَّفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (٤/ ١٢٣). سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، دار النشر: دار المعارف، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١١/ ٦٢٣) برقم (٧٠٤٥). مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١ هـ)، المحقِّق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠١ م. والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣/ ٥٤) بلفظ:" اللَّهُمَّ لا طيرَ إلَّا طيرُك، ولا خيرَ إلَّا خيرُك، ولا إلهَ غيرُك". سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج



وأمَّا الهامة: فهو طائر يُسمَّى البومة، يزعم أهل الجاهلية أنَّه إذا نعق على بيت أحدهم فإنَّه يموت هذا البيت، فأبطلَ النبيُّ ﷺ ذلك.

وأمَّا قوله ﷺ:" ولا صفر" فهو الشهر المعروف، وكان بعض أهل الجاهلية يتشاءمون به. فأبطلَ النبيُّ ﷺ ذلك، وأوضح أنَّه كسائر الشهور ليس فيه ما يُوجِب التشاؤم. وقال بعض أهل العلم: إنَّها دابَّةٌ تكون في البطن تُسمَّى: صفر، وكان بعض أهل الجاهلية يعتقدون فيها أنَّها تُعدِي، فأبطلَ النبيُّ ﷺ ذلك"[١].

ويقول الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-: قوله ﷺ:" لا عدوى" لا نافية للجنس، ونفيُ الجنسِ أعمُّ من نفي الواحد والاثنين والثلاثة؛ لأنَّه نفيٌ للجنس كُلِّه، فنفَى الرسول ﷺ العدوى كلَّها[٢].

فينبغي أن يُعلَم أنَّ كُلًّا من العدوى والطِّيَرَةِ قد وردا في هذه الأحاديث نكرةً في سياق النفي، وكلُّ نكرةٍ في سياق النفي تكون من صيغ العموم كما تقرَّر في علم الأصول، فكأنَّما النَّبيُّ ﷺ قال: ليس شيءٌ من أفراد العدوى والطِّيَرَة ثابتًا.

قال ابن القَيِّم- رحمه الله-:" ويُقوِّي هذا العموم حديث معاوية بن الحكم السلمى- رضي الله عنه- أَنَّه قَالَ:" يَا رَسُول الله؛ وَمِنَّا أُنَاسٌ يَتَطَيَّرُونَ، فَقَالَ: ذَلِك شَيْءٌ يجِدُهُ أحدُكُم فِي نَفسه فَلَا يَصُدَّنَّه" رواه مسلم[٣]، فأخبر أَنَّ تأذيَّه وتشاؤمه بالتطيُّر إِنَّما هو فِي نفسه وعقيدته لا فِي المتطيَّر بِه، فوهمُه وخوفُه وإشراكُه هو الذي يُطيِّره ويصدُّه، لا ما رآه وسمعه ، فأوضح لأُمَّته الأَمر وبيَّن لهم فساد الطِّيَرَة"[٤].

نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف)، عدد الأجزاء: ٦، عام النشر: جـ ١ - ٤: ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م، جـ ٥: ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦ م، جـ ٦: ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠٢ م.

(١) مجموع فتاوى ابن باز (٢٥/ ٨٩-٩١). مجموع فتاوى العلَّامة عبد العزيز بن باز رحمه الله، المؤلف: عبد العزيز بن عبد الله بن باز (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ٥٦٢). مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى : ١٤٢١ هـ)، جمع وترتيب : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الناشر: دار الوطن- دار الثريا، الطبعة: الأخيرة، ١٤١٣ هـ.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٧٤٨) برقم (٥٣٧) كتاب السَّلام. باب تحريم الكهانة وإتيان الكُهَّان. وآخره عنده بلفظ: "فلا يَصُدَّنَّكم".

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢/ ٢٣٤). مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت.

والعدوى في حقيقتها: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح، وكما يكون في الأمراض الحِسِّيَّة؛ يكون أيضًا في الأمراض المعنويَّة الخُلُقيَّة، ولهذا أخبر النبيُّ ﷺ:" أنَّ جليس السوء كنافخ الكير؛ إمَّا أن يحرق ثيابك، وإمَّا أن تجد منه رائحة كريهة" رواه البخاري ومسلم[١].

يقول الشاعر صالح بن عبد القدوس مُحذِّرًا من عدوى الأخلاق:

واحذرْ مُصاحبةَ اللئيمِ فإنَّهُ   يُعدي كما يُعدي الصحيحَ الأجربُ [٢]

الخلاصة: نخلص من جميع ما تقدَّم إلى الفوائد التالية:

١- العدوى حقيقة موجودة؛ ولكن المرض لا ينتقل من مريض إلى صحيح إلَّا بإرادة الله جلَّ وعلا.

٢- من تمام الإيمان الاعتقاد الجازم بما أخبر به النبيُّ ﷺ:" واعلم أنَّ ما أصابك لم يكُن لِيُخطِئَكَ، وما أخطأك لم يكن لِيُصيبَكَ" رواه أبو داود[٣]. ذلك أنَّ أمور الكون كلَّها، صغيرها وكبيرها، تجري وفقًا لإرادة الله عزَّ وجلَّ، وبمقتضى حِكمته وعدله ورحمته تبارك وتعالى.

٣- الأخْذ بأسباب السلامة والعافية، وتجنُّب الأمور التي يمكن أن تُلحِقَ بالإنسان وبيئتِه الضرَّ والأذى. ومن ذلك: التحرُّز من دخول الأماكن التي تظهر فيها الأوبئة، وعدم مُخالَطة المرضى بأمراض مُعدية، وأخْذ الاحتياطات اللازمة عند التعامُل معهم، وإقرار الحَجْرِ الصِّحِّيِّ الذي تُطبِّقه الدول حفاظًا على صحَّة مواطنيها. فعلى الإنسان أن يعتمد على الله ويتوكَّل عليه. قال

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٩٦) برقم (٥٥٣٤) كتاب الذبائح والصيد. باب المِسْك. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٦) برقم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة والآداب. باب استحباب مجالسة الصالحين، ومُجانَبة قُرناء السوء.

(٢) من قصيدة له بعنوان فدعِ الصبا (القصيدة الزينبية) يُنظَر: مجموعة القصائد الزهديَّات (٤٦٣/١). مجموعة القصائد الزهديات المؤلف: أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن السلمان (ت ١٤٢٢ هـ) الناشر: مطابع الخالد للأوفسيت– الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ.

(٣) رواه أبو داود بلفظ:" وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليُخطِئَكَ، وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليُصيبَكَ" (٤/ ٢٢٥) برقم (٤٦٩٩) كتاب السُّنَّة. باب في القَدَر. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٠/ ١٩٩). وقد رواه الطبراني بهذا اللفظ في المعجم الكبير للطبراني (١١/ ١٢٣) برقم (١١٢٤٣)؛ والحاكم في المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٦٦٦) برقم (٦٣٨٣). المعجم الكبير، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقِّق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية– القاهرة، الطبعة: الثانية. المستدرك على الصحيحين للحاكم، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ)، المحقِّق: أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار النشر: دار الحرمين، البلد: القاهرة– مصر، سنة الطبع: ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.



تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[١]، ولا يُمكن أن يُقال: إنَّ الرسول ﷺ يُنكِر تأثير العدوى؛ لأنَّ هذا أمرٌ يُبطِلُه الواقعُ والأحاديث الأخرى.

٤- على المسلم أن يتفاءل دومًا، ولْيحذرْ من التشاؤم؛ فإنَّه لا يُغني حَذَرٌ من قَدَرٍ.

كَـمْ تَشْـتَكِي وَتَقُـولُ إِنَّـكَ مُعـدَمُ	والأرضُ مِلكُـكَ والسَّمَا والأَنْجُـمُ
وَلَــكَ الحُقُــولُ وَزَهْرُهَــا وَأَرِيجُهَــا	وَنَسِــيمُهَا وَالْبُلْبُــلُ الْمُتَــرَنِّمُ
هَشَّـتْ لَـكَ الـدُّنْيَا فَمَالَـكَ وَاجِـمٌ	وَتَبَسَّـمَتْ فَعَــلَامَ لَا تَتَبَسَّـمُ
إِنْ كُنْـتَ مُكْتَئِبًـا لِعِـزٍّ قَـدْ مَضَـى	هَيْهَـاتَ يُرْجِعُـهُ إِلَيْـكَ تَنَـدُّمُ
أَوْ كُنْـتَ تُشْـفِقُ مِـنْ حُلُـولِ مُصِيبَةٍ	هَيْهَـاتَ يَمْنَـعُ- أَنْ تَحِـلَّ- تَجَهُّـمُ
أَوْ كُنْتَ جَاوَزَتَ الشَّبَابَ فَلَا تَقُـلْ	شَــــاخَ الزَّمَانُ فَإِنَّهُ لَا يَهْـرَمُ[٢]

---

(١) البقرة ١٩٥.

(٢) يُنظَر: كتاب موسوعة الرقائق والأدب. ياسر الحمداني- هموم العلماء (ص ٦٠٩٩). موسوعة الرقائق والأدب. المؤلف: ياسر بن أحمد بن محمود بن أحمد بن أبي الحمد الكويس الحمداني.

٢ صفر

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢]، وفي حديث جبريل- عليه السلام- لما سأل النبيَّ ﷺ عن الإيمان قال:" أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدَر خيره وشرِّه" رواه مسلم[٣].

وقال تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٤].

قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-:" في هذه الآية الكريمة دليلٌ على أنَّ الإنسان مخلوقٌ لله تعالى، وأنَّ أفعاله مخلوقةٌ لله، وأنَّ كلَّ شيءٍ قد قُدِّر وانتهى، وإذا كان كذلك فلْيلجأ الإنسان إذا أصابته ضراء إلى الله الخالق، وإذا أراد السراء أيضًا يلتجئ إلى الله الخالق، لا يفخرَنَّ ولا يعجبَنَّ بنفسه إذا حصل له مطلوب، ولا ييأسَنَّ إذا أصابه المكروب، فالأمر بيد الله"[٥].

قال الشاعر أبو نوَّاس يُخاطِبُ نفسَه:

يَا نُوَّاسِيُّ تَوَقَّرْ وتَجَمَّلْ وتَصَبَّرْ
سَاءَكَ الدهرُ بشيءٍ وبِمَا سَرَّكَ أكثرْ
يَا كبيرَ الذنبِ عفوُ اللهِ مِن ذنبِك أكبرْ
أكبرُ الأشياءِ عَن أصغرِ عفوِ اللهِ أصغرْ
ليسَ للإنسانِ إلَّا مَا قضَى اللهُ وقَدَّرْ
ليسَ للمخلوقِ تدبيرٌ بَلِ الْخَالِقُ دبَّرْ[٦]

---

(١) القمر ٤٩.

(٢) التغابن ١١.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٣٧) برقم (٨) كتاب الإيمان. باب معرفة الإسلام والإيمان والقدَر وعلامة الساعة.

(٤) الرعد ٣٩.

(٥) تفسير العثيمين: الحجرات- الحديد (ص ٢٩٢). تفسير الحجرات- الحديد، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

(٦) يُنظَر شرح مقامات الحريري (٣/ ٤٨٣) فقد ذكرها مع اختلاف يسير، ونصُّها عنده: يا نوَّاسيُّ توقَّر ... وتعزَّى وتصبَّر، ساءَكَ الدهرُ بشيءٍ ... ولما سرَّك أكثر، يا كبير الذنب عفو الله ... من ذنبك أكبر، أكبر الأشياء في أصغ ... ر عفو الله أصغر، ليس للإنسان إلَّا ... ما قضى الله وقدَّر، ليس للمخلوق تدبي ... ر بل الخالق دبَّر. شرح مقامات الحريري، المؤلف: أبو عباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القَيْسي الشُّريشي (المتوفى: ٦١٩هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة: الثانية، ٢٠٠٦ م- ١٤٢٧هـ.



وسُئِل الشيخ ابن باز- رحمه الله-:" هل الدعاء يَرُدُّ القدَر؟ فقال: نعم، الدعاء من أسباب ردِّ القدَر المعلَّق، والقدَر يكون مُعلَّقًا ويكون مبتوتًا، فإذا كان قدَرًا مُعلَّقًا؛ قد قدَّر الله جلَّ وعلا أن يهبَه ولدًا إذا دعا ربَّه، فدعا ربَّه واستجاب دعوته، هذا مُعلَّقٌ بالدعاء، أو قدَّر الله له مالًا إذا دعا ربَّه في طلب ذلك المال، فإذا دعا ربَّه يسَّر الله له المال المعلَّق على هذا الدعاء، أو طلب زوجة، طلب أن يُزوِّجه فلانة، والله قد قدَّر له ذلك بهذا الطلب، قد علَّق القدَر بهذا الطلب، أنَّ فلانًا قدَّر الله في سابق علمه أنَّه يسأل ربَّه أن يُزوِّجه فلانة بنت فلان، فإذا ألهمه الله الدعاء ووفَّقه للدعاء، حصل المقدور المعلَّق، أمَّا الأقدار المبتوتة التي ليستْ مُعلَّقة، هذه ما تتعلَّق بالدعاء، الموت المحدود في يوم معلوم دون دعاء، إذا جاء يوم موته المحدود مات؛ دعا أو لم يدع"[١].

قال معالي الشيخ الدكتور صالح آل الشيخ في شرْح الطحاويَّة، وها نحن ننقله باختصار:" وللإيمان بالقدَر أربعُ مراتب، هي: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخَلْق.

فالمرتبة الأولى: العلم، وهي الإيمانُ بعلم الله المحيط بكل الموجودات والمعدومات، والممكِنات والمستحيلات؛ قال ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ﴾[٢]، وعن أُبَيِّ بن كعب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:"إنَّ الغلامَ الذي قتَله الخَضِرُ طُبِعَ يومَ طُبِعَ كافرًا، ولو عاش لأرهَق أبويه طُغيانًا وكُفرًا" رواه مسلم[٣].

والمرتبة الثانية: الكتابة، وهي الإيمان بكتاب الله، الذي لم يُفرِّط فيه من شيءٍ؛ قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٥]، وقال أيضًا: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[٦].

---

(١) فتاوى نور على الدرب. لابن باز بعناية الشويعر (٤/ ٢٥٥). فتاوى نور على الدرب، المؤلف: عبد العزيز بن عبد الله بن باز (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، جمعها: الدكتور محمد بن سعد الشويعر، قدَّم لها: عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ.

(٢) الحشر ٢٢.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥١) برقم (٢٣٨٠) كتاب الفضائل. باب مِن فضائل الخضر عليه السلام. و (٤/ ٢٠٥٠) برقم (٢٦٦١) كتاب القدَر. باب معنى (كُلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطْرة).

(٤) النبأ ٢٩.

(٥) يس ١٢.

(٦) الحج ٧٠.

والمرتبة الثالثة: المشيئة، وهي الإيمان بمشيئة الله تعالى النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء اللهُ كَوْنَه؛ فهو كائنٌ بقُدرته لا محالة، وما لم يشأِ الله تعالى لم يكن؛ لعدم مشيئته سبحانه إيَّاه، ليس لعدم قدرته عليه؛ فالسبب في عدم وجود الشيء هو عدم وجود مشيئة الله، لا أنَّه عجَز عنه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾(٢)، وقال أيضًا: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾(٣).

المرتبة الرابعة: الخَلْق، وهي الإيمان بأنَّ الله سبحانه وتعالى خالِقُ كُلِّ شيءٍ؛ فهو خالقُ كُلِّ عاملٍ وعمله، وكُلِّ مُتحرِّكٍ وحركته، وكُلِّ ساكنٍ وسكونه، وما من ذرَّة في السموات ولا في الأرض إلَّا والله سبحانه وتعالى خالِقُها، وخالِقُ حركتها وسكونها، ولا خالِقَ غيره، ولا ربَّ سواه، وأنَّه سبحانه خَلَقَ مِن العدم، وهذا من توحيد الربوبيَّة التي هي من أفعال الله سبحانه؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾(٤)، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾(٥) (٦)، وقال ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-:" إنَّ الرجل ليمشي في الأسواق، وإنَّ اسمَه لفي الموتى"(٧)، وذُكِرَ القدَرُ عنده يومًا، فأدخل إصبعه السبَّابة والوسطى في فيه فرقَم بهما باطن يديه، فقال: أشهدُ أنَّ هاتَينِ الرَّقمتَينِ كانتا في أُمِّ الكتاب" (٨).

وإليك تلك الوصية الغالية من رسول الله ﷺ والتي يقول فيها:" احرصْ على ما ينفُعُك، واستعنْ بالله ولا تعجز، وإن أصابكَ شيءٌ فلا تقلْ: لو أنِّي فعلتُ كذا لكان كذا وكذا، ولكن قُلْ: قدَّرَ الله وما شاء فعل" رواه مسلم(٩).

---

(١) فاطر ٤٤.

(٢) الأنعام ٣٥.

(٣) البقرة ٢٥٣.

(٤) الرعد ١٦.

(٥) الصافات ٩٦.

(٦) يُنظَر: شرح الطحاويَّة لصالح آل الشيخ= إتحاف السائل بما في الطحاويَّة من مسائل (ص: ٢٣١، بترقيم الشاملة آليًّا). إتحاف السائل بما في الطحاويَّة من مسائل، المؤلف: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، [الكتاب مُرَقَّمٌ آليًّا، دروس مُفرَّغة].

(٧) رواه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه (٤/ ٣١٧) برقم (٧٩٢٦). المصنف، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١ هـ)، المحقِّق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، يُطلَب من: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ هـ.

(٨) رواه عبد الله بن أحمد في السُّنَّة (٢/ ٤٣٢) برقم (٩٥٥). السُّنَّة، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١ هـ)، المحقِّق: د. محمد سعيد سالم القحطاني، الناشر: دار ابن القيِّم- الدَّمَّام، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ.

(٩) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٢) برقم (٢٦٦٤) كتاب القَدَر. باب في الأمْر بالقُوَّة وترْك العجز.



والخلاصة: أنَّ جميع الكتب السماوية والسُّنن النَّبويَّة؛ قد اتَّفقتْ على أنَّ القدَر لا يمنع العمل، ولا يُوجِب الاتِّكال، بل يُوجب الجدَّ والاجتهاد، والحرص على العمل الصالح؛ فعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال:" كُنَّا جلوسًا مع النبي ﷺ ومعه عُودٌ ينكُتُ به في الأرض، وقال: ما منكم من أحدٍ إلَّا وقد كُتِب مقعده من النَّار أو من الجنَّة، فقال رجلٌ من القوم: ألا نتَّكِلُ يا رسول الله؟ قال: لا، اعمَلوا فكُلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِق له، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾(١) رواه البخاري ومسلم(٢).

وعلى المسلم التعامُل مع موضوع القَدَر بحَذَرٍ شديدٍ، فلا ينزلق في المسائل الشائكة، عملًا بقوله ﷺ:" إذا ذُكِرَ أصحابي فأمسِكوا، وإذا ذُكِرَ النُّجومُ فأمسِكوا، وإذا ذُكِرَ القَدَرُ فأمسِكوا" رواه الطبراني(٣).

ويُعجبُني قولُ القائل:

مَـا مَسَّـنِي قَـدَرٌ بِكُـرْهٍ أَوْ رِضـا ... إِلَّا اهتـديتُ بِـهِ إليـكَ طَرِيقَـا
أَمضِ القَضَـاءَ عَلَى الرِّضَـا مِنِّي بِهِ ... إِنِّي وَجَـدْتُكَ فِي الْـبَلَاءِ رَفِيقَـا(٤)

---

(١) الليل ٥-١٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٧١) برقم (٤٩٤٩) كتاب تفسير القرآن. باب {فسنُيسِّره للعسرى} الليل: ١٠. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٤٠) برقم (٢٦٤٧) كتاب القَدَر. باب كيفيَّة خلْق الآدمي في بطن أُمِّه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ٩٦) برقم (١٤٢٧). والحديث صحَّحه الألباني بشواهده كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٧٥).

(٤) ذكره ابن القيِّم كما في إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٧٣). إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيِّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، المحقِّق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٣ صفر

لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

جاء ذِكْرُ خطوات الشيطان في أربعة مواضع من كتاب الله تعالى، كُلُّها بصيغة النهي عن اتِّباعها " لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ"، وهذه المواضع الأربعة حسب ترتيبها في المصحف هي:

الموضعان الأوَّل والثالث في سياق ذِكْر الطعام؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٢].

الموضع الثاني في سياق الأمر بأخْذ شرائع الإسلام كلِّها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٣].

الموضع الرابع في سياق النهي عن الفواحش: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ﴾[٤].

قال الشيخ أبو بكر الجزائري في تفسير الآية:" أي: يا من صدَّقتم اللهَ ورسوله ﷺ ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾؛ فإنَّه عدوُّكم، فكيف تمشون وراءه وتتَّبعونه فيما يُزيِّن لكم من قبيح المعاصي وسَيِّئ الأقوال والأعمال؛ فإنَّ مَن يتَّبع خطوات الشيطان لا يلبث أن يصبح شيطانًا، يأمر بالفحشاء والمنكر، ففاصلوا هذا العدوَّ، واتركوا الجري وراءه؛ فإنَّه لا يأمر بخيرٍ قط، فاحذروا وساوسه، وقاوموا نزغاته بالاستعاذة بالله السميع العليم؛ فإنَّه لا ينجيكم منه إلَّا هو سبحانه وتعالى"[٥].

وقال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-:" كُلُّ شيءٍ حرَّمه الله فهو من خطوات الشيطان، سواء كان عن استكبار أو تكذيب أو استهزاء أو غير ذلك؛ لأنَّه يأمر به، وينادي به، ويدعو إليه، والله أعلم"[٦].

---

(١) البقرة ١٦٨

(٢) الأنعام ١٤٢.

(٣) البقرة ٢٠٨.

(٤) النور ٢١.

(٥) أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٥٧). أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، المؤلف: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنوَّرة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٦) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٢/ ٢٣٤). تفسير الفاتحة والبقرة، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.



وقال الشيخ السعدي- رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أي: طرقه ووساوسه. وخطوات الشيطان يدخل فيها سائر المعاصي المتعلِّقة بالقلب واللِّسان والبدن. ومن حِكمته تعالى أن بيَّن الحُكم، وهو: النَّهْي عن اتِّباع خطوات الشيطان. والحِكمة وهو: بيان ما في المنهي عنه من الشَّرِّ المقتضي، والداعي لتركه، فقال: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: الشيطان ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه، ﴿وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ وهو ما تُنكره العقول ولا تعرفه. فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان؛ لا تخرج عن ذلك، فنهْيُ الله عنها للعباد نعمةٌ منه؛ عليهم أن يشكروه ويذكروه، لأنَّ ذلك صيانةٌ لهم عن التدنُّس بالرذائل والقبائح، فمِن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكْلِ السموم القاتلة ونحوها"[١].

قال ابن عاشور:" والمعنى: ومَن يتَّبع خطوات الشيطان يفعل الفحشاء والمنكر؛ لأنَّ الشيطان يأمر النَّاس بالفحشاء والمنكر، أي بفعلهما، فمَن يتَّبع خطوات الشيطان يقع في الفحشاء والمنكر؛ لأنَّه من أفراد العموم" [٢].

ويُلاحَظ في القرآن الكريم أنَّ الله تعالى كرَّر النَّهي عن اتِّباع خطوات الشيطان، ولم يقل: لا تتبعوا الشيطان، ولعلَّ ذلك لأمرين:

الأوَّل: مِن جهة العبد، فمِن المستبَعد أن يتَّبع الشيطان وهو يعلم عداوته له؛ فحذَّر الله تعالى العبد ممَّا لا ينتبه له، وهو خطوات الشيطان.

الثاني: مِن جهة الشيطان، وهو أنَّه يتدرَّج مع المؤمن في الإغواء، فيُزيِّن له التوسُّع في المباحات، ثم التساهُل في المتشابهات، فغشيان مُحقَّرات الذُّنوب، إلى أن يصل به إلى الحرام المحض، بل إلى الكبائر والعياذ بالله تعالى. ويبعد جدًّا أنَّ عبدًا مُؤمنًا مُطيعًا لله عزَّ وجلَّ؛ مُنتهٍ عن محارمه؛ ينتقل فجأة إلى الموبقات وكبائر الذُّنوب، لكن يصل إليها بالتدرُّج إذا تسلَّط عليه الشيطان بخطواته، ووَجَدَه

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٦٤). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقِّق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١٨٧). التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر– تونس، سنة النشر: ١٩٨٤م.

يسير معه فيها. وإذا عجز عن العبد من جهة المعصية؛ لمتانة دينه وبُعْدِهِ عن الشهوات؛ أتاه مِن جهة البدعة والوسوسة في الطاعات.

ومن خطوات الشيطان:

١- القول على الله بلا علمٍ. وهذا يكون بالخوض في الشريعة وأحكامها بجهلٍ، كما يقع في ذلك كثيرٌ من الجهلة المتشبّهين بالغرب ونحوهم؛ فيُبيحون المحرَّمات، ويُسقِطون الواجبات، وينتهكون حِمى الشريعة، ويُهوِّنون أحكامها لدى العامَّة بما يستحسنونه من آرائهم التي يستمدُّونها من ثقافات الغرب وأفكاره.

٢- الترخيص على الناس وإرضاؤهم، فمَن فعل ذلك سينتهي به المطاف إلى إباحة المحرَّمات، وإسقاط الواجبات؛ وذلك أنَّ الله تعالى لما أمر بالدخول في الإسلام كافَّة، وأخْذِ الشرائع كلِّها؛ نهى عن اتِّباع خطوات الشيطان؛ لأنَّ الشيطان يريد صدَّ الناس عن الأخْذِ بالشرائع كلِّها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾(١). قال ابن عثيمين- رحمه الله-:" نَهْيٌ بعد أمْرٍ؛ لأنَّ اتِّباع خطوات الشيطان يُخالِف الدخول في السِّلم كافَّة"(٢).

والشيطان- في تحقيق عداوته للإنسان، وفي سبيل غزوه إيَّاه بخطواته- يسلك كُلَّ طريقٍ للإغواء، ويأتي الإنسان من جهاته الأربع ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾(٣)؛ ولذا كان واجبًا على الإنسان أن يجعل الشيطان عدوًّا له؛ فلا يتَّبع خطواته، ولا يستسلم لوساوسه؛ لئلَّا يقوده إلى المحرَّمات ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٤).

والخلاصة: أنَّ الشيطان يبدأ عند غواية العبد ببواعث المعصية في النفس حتى السقوط فيها، ثم الاستمرار عليها ثم المداومة إلى الموت إلَّا أن يعصمه الله. فهو يبدأ غوايته بخطرة، ثم فكرة، ثم هَمٍّ، ثم عزْم، ثم فِعْل، ثم عادة، ثم سلوك، ثم مُجاهَرة، والخاتمة يعلمها الله وحده.

---

(١) البقرة ٢٠٨.

(٢) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٦).

(٣) الأعراف ١٦- ١٧.

(٤) فاطر ٦.



فإذا أردت أن تنجو من حبائل الشيطان فلا تتَّبِع خطواته، بل احذر أوَّل خطوة. فمَن يتَّبع خطوات الشيطان فإنَّه يترقَّى من رتبة الضلال والفساد إلى رتبة الإضلال والإفساد فيأمر هو بذلك. كما قال بعضهم:

وكنتُ امْرَءًا من جُندِ إبليسَ فارتَقَى   بي الحالُ حتَّى صَارَ إبليسُ من جُندِي

فإنْ مَاتَ قَبلي كنتُ أُحسِنُ بعدَهُ   طَرَائِقَ فِسْقٍ ليسَ يُحسنُهَا بَعْدِي[1]

(١) ذكره غير واحد من أهل العلم ولم أقف على نسبته لقائلٍ بعينه. يُنظَر: الاعتصام للشاطبي (٢/ ٥٢٦). الاعتصام، المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الناشر: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٤ صفر

وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ

المسابقة إلى الخيرات خُلُقٌ عظيمٌ، ومسلَكٌ كريمٌ لا يتَّصِفُ به إلَّا الجادُّون المشمِّرون، والمسارعةُ إلى أعمالِ البرِّ طبعٌ لا يتخلَّقُ به ولا يُهدَى إليه إلَّا مَن وهَبَه الله عُلُوَّ هِمَّة، وقُوَّةَ عزيمَة، مع سلامةِ قلبٍ، ورَجاحَةِ عقلٍ، وانشِراحِ صَدرٍ.

قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[1]، أي: وفي هذا الثواب والجزاء ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾أي: فليتسابق المتسابقون سباقًا يَصِل بهم إلى حدِّ النَّفس، وهو كنايةٌ عن السرعة في المسابقة؛ يقال: نافَسْتُه، أي: سابَقْتُه سِباقًا بلغ بي النَّفَس.

والمنافَسة في الخير هي: المسابَقة إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ وإلى ما يُرضِي الله سبحانه وتعالى، والبُعد عمَّا يُسخِط الله[2].

وقال الشيخ السعدي- رحمه الله-: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾أي: يتسابقوا في المبادرة إليه بالأعمال الموصِّلة إليه، فهذا أولى ما بُذلتْ فيه نفائسُ الأنفاس، وأحرى ما تزاحمتْ للوصول إليه فحولُ الرجال"[3].

وقال ابن القيّم- رحمه الله-:" الْمُنَافَسَةُ هِيَ كَمَالُ الرَّغْبَةِ فِي الشَّيْءِ، وَمَنْعُ الْغَيْرِ مِنْهُ، إِنْ لَمْ يُمْدَحْ فِيهِ الْمُشَارَكَةُ، وَالْمُسَابَقَةُ إِلَيْهِ إِنْ مُدِحَتْ فِيهِ الْمُشَارَكَةُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[4]، وَبَيْنَ الْمُنَافَسَةِ وَالْغِبْطَةِ جَمْعٌ وَفَرْقٌ، وَبَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْحَسَدِ أَيْضًا جَمْعٌ وَفَرْقٌ.

فَالْمُنَافَسَةُ تَتَضَمَّنُ مُسَابَقَةً وَاجْتِهَادًا وَحِرْصًا، وَالْحَسَدُ: يَدُلُّ عَلَى مَهَانَةِ الحَاسِدِ وَعَجْزِهِ، وَإِلَّا فَنَافِسْ مَنْ حَسَدْتَهُ، فَذَلِكَ أَنْفَعُ لَكَ مِنْ حَسَدِهِ، كَمَا قِيلَ:

إِذَا أَعْجَبَتْكَ خِلَالُ امْرِئٍ ... فَكُنْهُ يَكُنْ مِنْكَ مَا يُعْجِبُكْ

فَلَيْسَ عَلَى الْجُودِ وَالْمَكْرُمَا ... تِ إِذَا جِئْتَهَا حَاجِبٌ يَحْجُبُكْ

---

(١) المطفِّفين ٢٦.

(٢) تفسير العثيمين: جزء عمَّ (ص ١٠٥). تفسير جزء عمَّ، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١ هـ)، إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢ م.

(٣) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٩١٦).

(٤) المطفِّفين ٢٦.



وَالْغِبْطَةُ تَتَضَمَّنُ نَوْعَ تَعَجُّبٍ وَفَرَحٍ لِلْمَغْبُوطِ وَاسْتِحْسَانٍ لِحَالِهِ[١].

وقال البغوي- رحمه الله-:" أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس ويريده كُلُّ أحدٍ لنفسه" [٢]، وربما فرحتْ إذا شاركتْها فيه كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يتنافسون في الخير، ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحضُّ بعضُهم بعضًا عليه مع تنافُسهم فيه، وهي نوعٌ من المسابقة وقد قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٤]، وكان عمر بن الخطَّاب يُسابِق أبا بكر- رضي الله عنهما- فلم يظفر بسبقه أبدًا، فقال:" واللَّهِ ما سبقتُه إلى خيرٍ؛ إلَّا وجدتُه قد سبقني إليه"[٥].

والمتنافِسان كعبدَينِ بين يدَيْ سيِّدهما، يتباريان ويتنافسان في مرضاته، ويتسابقان إلى محابِّه، فسيِّدُهما يُعجبُه ذلك منهما، ويحثُّهما عليه، وكلٌّ منهما يُحِبُ الآخَر، ويُحرِّضُه على مرضاة سيِّده.

قال الحسن- رحمه الله-: مَن نافسَك في دينِك فنافسْه، ومَن نافسَك في دنياك فألْقِها في نحره[٦].

والتسابُق في الخير له فوائد عظيمة، وثمرات يانعات مباركات، فمن ثماره أنَّه:

١- دليلٌ على حُسْنِ الإيمان وصِدْقِ اليقين: فقد وصف الله المؤمنين الخالصين بأنَّهم هم الذين يسارعون في الخيرات طلبًا للصلاح والفلاح، قال تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٣/ ٤٨).

(٢) تفسير البغوي (٨/ ٣٦٨) وتتمَّته:" وينفس به على غيره، أي يضنُّ". معالم التنزيل في تفسير القرآن= تفسير البغوي، المؤلف: مُحيي السُّنَّة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠ هـ)، المحقِّق: حقَّقه وخرَّج أحاديثه محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧ م.

(٣) البقرة ١٤٨.

(٤) الحديد ٢١.

(٥) رواه أحمد في مسنده (٧/ ٣٦٠) برقم (٤٣٤٠) ولفظه:" يرحم اللهُ أبا بكرٍ، ما سبقتُه إلى خيرٍ قط؛ إلَّا سبقني إليه". والحديث حسَّنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٥/ ٣٧٩).

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الزهد (ص ٢٢٩) ولفظه:« إذا رأيتَ الرجل ينافسك في الدنيا فنافسْه في الآخرة». الزهد لابن أبي الدنيا، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[١].

٢- دليلُ حُبِّ الله تعالى للعبد: وأنَّه قد اختاره ليجعله في الأرض مفتاحًا من مفاتيح الخير، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[٢].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ- رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ، مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ، مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ" رواه ابن ماجه[٣].

٣- سببٌ لتفريج الكروب وسترِ العيوب: وذلك من صفات أهل الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[٤].

٤- سببٌ لاستجابة الدعاء وقبول الرجاء: يقول الله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٥].

لذا فقد كان من دعاء النبي ﷺ:" اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي" أخرجه الترمذي[٦].

---

(١) آل عمران ١١٣-١١٥.

(٢) الأنبياء ٧٣.

(٣) رواه ابن ماجه في سُننه (١/ ٨٦) برقم (٢٣٧) افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم. باب مَن كان مفتاحًا للخير. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (١/ ٣٠٩). صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنَّة بالإسكندرية.

(٤) آل عمران ١٠٤.

(٥) الأنبياء ٨٩-٩٠.

(٦) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٦٩) برقم (٣٢٣٥) أبواب تفسير القرآن. باب ومن سورة ص. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٧/ ٢٣٥). صحيح وضعيف سُنن الترمذي، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنَّة بالإسكندرية.



وانظرْ إلى تنافُس الصحابة عندما أتى فقراء المهاجرين رسولَ اللهِ ﷺ فقالوا: ذَهَبَ أهلُ الدثور (أي المال الكثير) بالدرجات العُلا، والنعيم المقيم، فقال: وما ذاك؟ قالوا: يُصلُّون كما نُصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون ولا نتصدَّق، ويُعتِقون ولا نُعتِق. فقال رسول الله ﷺ: أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به مَن سبقكم، وتسبقون به مَن بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضلَ منكم؛ إلَّا مَن صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تُسبِّحون، وتُكبِّرون، وتحمدون دبر كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين مرَّة، فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمعَ إخوانُنا أهلُ الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ:" ذلك فضْلُ الله يُؤتيه من يشاء" رواه البخاري ومسلم[(١)].

والخلاصة: أنَّ العُقبى الحسنة لمن سابَق الناس في فِعْل الخيرات واجتناب المنكرات، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[(٢)].

أخي المسلم؛ بادرْ إلى الخيرات، وسارعْ إلى الصالحات، تَنَلِ البركات، وتُستجَبْ منك الدعوات، وتُفرَّجْ لك الكُرُبات، وتَنَلِ المرضاة من ربِّ البريَّات.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٦٨) برقم (٨٤٣) كتاب الأذان. باب الذِّكْر بعد الصلاة. ومسلم في صحيحه (١/ ٤١٦) برقم (٥٩٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب استحباب الذِّكْر بعد الصلاة وبيان صفته.

(٢) فاطر ٣٢-٣٥.



٥ صفر

وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ

في خضم الابتلاء الكبير الذي مرَّ برسول الله ﷺ وصحابته الكرام في غزوة أُحُدٍ؛ تجلَّتْ عظمة شخصيَّة النبي ﷺ حين يشهد القرآن له في آية كريمة برقَّة القلب وسعة الصدر وطيب القول في أعقاب هزيمة هزَّتْ زمرة المؤمنين وزلزلتْهم، نتيجة لانكسارات متتابعة اعترتهم في معركة أحد، حيث أُشيرَ على النبي ﷺ بغير ما يريد، وإذ تراجع ثُلُثُ الجيش من المنافقين قبل المعركة، وإذ لم يلتزم الرماة بأماكنهم، وإذ فرَّ الشجعان؛ والرسول ﷺ سيِّد الشجعان يدعوهم في أخراهم فلا يلتفتون إليه. في أعقاب كلِّ هذا تتبدَّى فرادة شخصية النبي ﷺ؛ لينُه ورحمتُه وحُسْنُ حديثِه ورقَّةُ قلبِه.

قال الحافظ ابن كثير- رحمه الله-: يقول تعالى مُخاطِبًا رسولَه ﷺ مُمتنًّا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أُمَّته، المتَّبعين لأمْره، التاركين لزجْره، وأطاب لهم لفظه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾(١)، أي: أيُّ شيءٍ جعلك لهم ليِّنًا لولا رحمةُ الله بك وبهم. قال قتادة: يقول: فبرحمةٍ من الله لنتَ لهم. واللين سهولة الأخلاق" (٢).

يقول البغوي: أي: سهَّلْتَ لهم أخلاقك، وكثرة احتمالك، ولم تُسرِعْ إليهم فيما كان منهم يوم أُحُدٍ(٣).

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾(٤)، والفظاظةُ كما يقول أبو حيَّان الأندلسي في تفسيره المحيط: هي الجفوة في المعاشرة قولًا وفعلًا، قال الشَّاعر:

أخشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أوْ جَفَاءَ أخٍ ... وَكُنْتُ أخْشَى عَلَيْهَا مِنْ أذَى الْكَلِمِ

والغلظُ: كبر الإجرام، ثم تُجوِّز به في عدم الشفقة، وكثرة القسوةِ في القلب.

---

(١) آل عمران ١٥٩.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٨). تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤ هـ)، المحقِّق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠ هـ- ١٩٩٩م.

(٣) تفسير البغوي (٢/ ١٢٤).

(٤) آل عمران ١٥٩.



قال الشاعر:

بْكَى عَلَيْنَا وَلاَ نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ ‏‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ونَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الإبِلِ

وقال أبو حيَّان:" يُستعمَلُ الغلظُ في قِلَّة الانفعال وقِلَّة الإشفاق والرحمة، والانفضاض: التفرُّق. وفضضتُ الشيءَ: كسرتُه، وهو تفرقة أجزائه"[١].

قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية: أي برحمة الله لك ولأصحابك؛ مَنَّ الله عليك أن ألنتَ لهم جانبك، وخفضتَ لهم جناحك، وترقَّقتَ عليهم، وحسَّنتَ لهم خُلُقَكَ، فاجتمعوا عليك وأحبُّوك، وامتثلوا أمرك، ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا﴾ أي سَيِّئَ الخُلُقِ ﴿غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ﴾ أي قاسيه ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ لأنَّ هذا يُنفِّرهم ويُبغِّضُهم لمن قام به هذا الخُلُقُ السَّيِّئ، فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدنيا تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السَّيِّئة من القائد في الدين تُنفِّر النَّاس عن الدِّين، وتُبغِّضُهم إليه مع ما لصاحبها من الذَّمِّ والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم ﷺ يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟ أليس من أوجب الواجبات وأهمِّ المهمَّات الاقتداء بأخلاقه الكريمة ومعاملة الناس بما كان يُعاملهم به ﷺ من اللين وحُسْن الخُلُق والتأليف؛ امتثالًا لأمْر الله وجذبًا لعباد الله لدين الله[٢]. قال رسول الله ﷺ:" إنَّ الرفقَ لا يكون في شيءٍ إلَّا زانه، ولا يُنزَعُ من شيءٍ إلَّا شانه" رواه مسلم[٣].

يقول عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَمْرِو بنِ العَاصِ- رَضِيَ اللَّهُ عنْهمَا-:" واللَّهِ إنَّه ﷺ لَمَوْصُوفٌ في التَّوْرَاةِ ببَعْضِ صِفَتِهِ في القُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[٤]، وحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أنْتَ عَبْدِي ورَسولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ، ليسَ بفَظٍّ ولَا غَلِيظٍ، ولَا سَخَّابٍ في الأسْوَاقِ، ولَا يَدْفَعُ بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، ولَكِنْ يَعْفُو ويَغْفِرُ، ولَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حتَّى يُقِيمَ به المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بأَنْ يَقولوا: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، ويَفْتَحُ بهَا أعْيُنًا عُمْيًا، وآذَانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلْفًا" رواه البخاري[٥].

---

(١) يُنظَر: البحر المحيط في التفسير (٣/ ٣٨٣). البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيَّان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيَّان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقِّق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر- بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ١٥٤).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠٤) برقم (٢٥٩٤) كتاب البر والصلة والآداب. باب فضْل الرفق.

(٤) الأحزاب ٤٥.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٦٧) برقم (٢١٢٥) كتاب البيوع. باب كراهية السخب في السوق.

وقال الفخر الرازي:" وها هنا دقيقة أخرى: وهي أنَّه تعالى منعه من الغلظة في هذه الآية، وأمَرَه بالغلظة في قوله: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[1] فها هنا نهاه عن الغلظة على المؤمنين، وهناك أمَرَه بالغلظة مع الكافرين، فهو كقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[3]، وتحقيق القول فيه: أنَّ طرفيَ الإفراط والتفريط مذمومان، والفضيلة في الوسط، فورود الأمر بالتغليظ تارة، وأخرى بالنهي عنه؛ إنَّما كان لأجل أن يتباعد عن الإفراط والتفريط، فيبقى على الوسط الذي هو الصراط المستقيم ، فلهذا السِّرِّ مدح الله الوسط فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾[4][5].

وقال القاضي عياض في (الشفا): قال أبو بكر محمد بن طاهر: زيَّن الله تعالى محمدًا ﷺ بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلْق، فمَن أصابه شيءٌ من رحمته فهو الناجي في الدارين من كلِّ مكروهٍ، والواصل فيهما إلى كلِّ محبوبٍ[6].

وبكلِّ هذا بدت شخصيَّة النبي ﷺ من خلال تلك الآية العظيمة التي تجلَّت بها بوصلة النجاح والنصر والسيادة، والتي تقود إلى وحدة المسلمين وائتلافهم وتراحمهم وصدورهم عن رأيٍ سديدٍ.

والخلاصة: أنَّ الآية الكريمة قد وضعتْ منهجًا جليًّا يرسم ملامح شخصية الداعية القائد، رسول الله ﷺ، ومَن سار على دربه من الدُّعاة والمصلحين، يمكن استخلاصه فيما يلي:

١- لين الجانب لإخوانه وأصحابه المؤمنين، وهو لين لا يُبذَل إلَّا لمِن يستحقُّه، ولا ينسَحِبُ على مَن سواهم.

---

(١) التوبة ٧٣.

(٢) المائدة ٥٤

(٣) الفتح ٢٩.

(٤) البقرة ١٤٣.

(٥) تفسير الرازي= مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٩/ ٤٠٨). مفاتيح الغيب= التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.

(٦) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ١٦). الشفا بتعريف حقوق المصطفى– مُذيَّلًا بالحاشية المسمَّاة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، المؤلف: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (المتوفى: ٥٤٤هـ)، الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمنى (المتوفى: ٨٧٣هـ)، الناشر: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤٠٩هـ– ١٩٨٨م.

٢- ينبعث لينُه مِن رحمةٍ لا مِن ضعفٍ، وهي رحمةٌ ربانيَّةٌ مُنضبِطةٌ بشرع الله، تقود إلى الوحدة والائتلاف، ولا تُفضي إلى تبعثُر وخور.

٣- فظاظة اللِّسان وسوء الحديث ليس من شيم الداعية المسلم ولا تنتصر دعوة به، وليس أسلوبًا ناجعًا لتقويم السائرين في الطريق وعلاج أخطائهم وزلَّاتهم.

٤- غلظة القلب تنعكس على الجوارح، فلا يمكن إخفاؤها بابتسامة زائفة أو كلمات مُصطَنعة، وهي مُفضية إلى انفضاض الناس وتذمُّرهم وتفرُّقهم، لأنَّ غلظة القلب والفظاظة صنوان يتلازمان معًا، ويُؤدِّيان إلى تنفير الناس وكسْر نفوسهم، ويقودان إلى التهوُّر وسوء التقدير.

٥- الداعية القائد مُحِبٌّ لأصحابه، يعفو عن زلَّاتهم، ويدعو لهم، ويستغفر لهم، ويستشيرهم في أموره.

٦ صفر

أهل الثناء والمجد

يقول رسول الله ﷺ:" ولا أحدَ أحبَّ إليه المدحُ من الله تعالى" رواه البخاري ومسلم[١].

فلا أحدَ أشدَّ حُبًّا للمدح والثناء الصادق الصحيح من الله تعالى، فإنَّه عزَّ وجلَّ يُحِبُّ الثناء والشُّكْر من عباده بالطاعة والعبادة والذِّكْر، ويكافؤهم عليه بزيادة النعمة، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢]، ومن أجل ذلك مدَحَ نفسه وأثنى على نفسه بنفسه ليُعلِّمَ عباده كيفيَّة الثناء عليه، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[٣].

لقد أثنى الله تعالى على نفسه بالحياة فقال عزَّ وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[٥]، وخاطب نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[٦]. وهو سبحانه المتفرِّد بالحياة الكاملة دون ما سواه ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ﴾[٧]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٨].

وأثنى سبحانه على نفسه بالعلْم، ففي قصَّة خلْق آدم واستخلافه في الأرض قال ربُّنا عزَّ وجلَّ لملائكته المسبِّحة بحمده: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٩]، وقال سبحانه لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[١٠]، وخاطب سبحانه عباده يخبرهم بأنَّه عزَّ وجلَّ أعلمُ بهم من أنفسهم ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ﴾[١١].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٣٥) برقم (٥٢٢٠) كتاب النكاح. باب الغيرة. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢١١٤) برقم (٢٧٦٠) كتاب التوبة. باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش.

(٢) إبراهيم ٧.

(٣) الفاتحة ١.

(٤) آل عمران ٢

(٥) غافر ٦٥.

(٦) الفرقان ٥٨.

(٧) القصص ٨٨

(٨) الرحمن ٢٦- ٢٧.

(٩) البقرة ٣٠.

(١٠) البقرة ٣٣.

(١١) الإسراء ٥٤- ٥٥.



ومعنى الثناء على الله هو أن يتضرَّع العبد إلى المولى عزَّ وجلَّ، وأن تكون بداية دعائه حمْد الله علي نعمه الكثيرة وفضله على عباده. كما أنَّ بدء دعاء العبد لله بالأسماء الحُسنى وصفاته العظيمة يُعتبَر من ضمن الثناء على الله قبل الدعاء.

قال النووي: حقيقة هذا مصلحة للعباد لأنَّهم يثنون عليه سبحانه وتعالى فيُثيبهم فينتفعون، وهو سبحانه غنيٌّ عن العالمين، لا ينفعه مدْحهم، ولا يضرُّه تركُهم ذلك، وفيه تنبيه على فضْل الثناء عليه سبحانه وتعالى، وتسبيحه وتهليله، وتحميده وتكبيره، وسائر الأذكار(١).

قال النبي ﷺ:" أَلِظُّوا بيَا ذَا الجَلال والإِكرام" رواه الترمذي(٢). أي الْزَمُوه واثْبُتُوا عليه وأكْثِرُوا من قوله والتَّلَفُّظِ به في دُعائِكم.

ولو تدبَّرنا القرآن حقَّ التدبُّر لوجدنا أنَّ القرآن كلَّه في الحديث عن الله تعالى وعن أسمائه وصفاته وقُدرته وعَظَمَتِه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾(٣).

قال ابن تيمية: وأمَّا سورة الإخلاص والمعوِّذتان؛ ففي الإخلاص الثناء على الله، وفي المعوِّذتين دعاء العبد ربَّه ليُعيذَه، والثناء مقرونٌ بالدعاء، كما قُرِن بينهما في أُمِّ القرآن المقسومة بين الربِّ والعبد: نصفها ثناءٌ للرَّبِّ، ونصفها دُعاءٌ للعبد(٤).

ولقد عرَّفنا الله بنفسه في كتابه الكريم في عدَّةِ آياتٍ منها على سبيل المثال: أعظم آية في القرآن؛ آية الكُرسيِّ وهي كلُّها من أوَّلها إلى آخرها ثناءٌ على الله.

وقوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾(٥). وقوله سبحانه: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ

(١) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٧٧). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٣٩) برقم (٣٥٢٤) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ٢٤).

(٣) الزمر ٦٧.

(٤) يُنظَر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٧٨). مجموع الفتاوى، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، المحقِّق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(٥) الأعراف ١٨٠.

وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[١]. ووصف نفسه سبحانه وتعالى بأنَّه: ﴿خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾[٢]، وأنَّه﴿خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[٣] ، وأنَّه ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[٤]، وأنَّه ﴿خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾[٥]،وأنَّه ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[٦]، وأنَّه ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٧]، وأنَّه ﴿خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[٨]، وأنَّه ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾[٩]، وأنَّه ﴿خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[١٠].

كذا ورد الثناء على الله تعالى في السُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة، فقد جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ فقال:" علِّمْني كلامًا أقوله، قال: قلْ: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، سُبحانَ اللهِ ربِّ العالمين، لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العزيز الحكيم، قال: فهؤلاء لربِّي؛ فما لي؟ قال: قل: اللَّهُمَّ اغفرْ لي وارحمْني واهدِني وارزقْني" رواه مسلم[١١]. فهذا الحديث يشتمل على الثناء على الله في بدايته ثم الدُّعاء للنَّفْس.

الخلاصة: أنَّ مِن محبته للثناء عليه شَرَعَه للداعي قبل سؤاله ودعائه؛ ليكون وسيلة له بين يدي حاجته؛ كالمتقرِّب إلى المسؤول بما يُحِبُّه، ويسأله بين يدي مطلوبه، كما في السُّنن حيث جاء رجلٌ فصلَّى فقال: اللَّهُمَّ اغفرْ لي وارحمْني، فقال ﷺ:" عجلتَ أيُّها المصلِّي، إذا صليتَ ففرغتَ فاحمدِ الله بما هو أهلُه، ثم صلِّ على النبي، ثم ادعه، ثم صلَّى رجلٌ آخر بعد ذلك، فحمد الله، وصلَّى على النبي، فقال له النبي ﷺ:" أيُّها المصلِّي؛ ادعُ تُجَبْ" رواه الترمذي[١٢].

---

(١) المؤمنون ٨٤-٨٩.

(٢) آل عمران ١٥٠.

(٣) المؤمنون ١٠٩- ١١٨.

(٤) الأعراف ٨٩.

(٥) الأعراف ١٥٥.

(٦) الأعراف ٨٧، يونس ١٠٩، يوسف ٨٠.

(٧) المائدة ١١٤، الحج ٥٨، المؤمنون ٧٢، سبأ ٣٩، الجمعة ١١.

(٨) الأنبياء ٨٩.

(٩) الأنعام ٥٧.

(١٠) المؤمنون ٢٩.

(١١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٢) برقم (٢٦٩٦) كتاب الذِّكْر والدُّعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل التهليل والتسبيح والدُّعاء.

(١٢) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥١٦) برقم (٣٤٧٦) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٧/ ٤٧٦).



وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: كنتُ أُصلِّي فلمَّا جلستُ بدأتُ بالثناء على الله، ثم الصلاة على النبي ﷺ، ثم دعوتُ لنفسي، فقال النبي ﷺ:"سلْ تُعطَه، سلْ تُعطَه" رواه الترمذي[١].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنَّه كان يقول في سجوده:" اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذ برضاك مِن سخطك، وبمعافاتك مِن عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أُحصي ثناء عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك" رواه مسلم[٢].

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٢/ ٤٨٨) برقم (٥٩٣) أبواب السَّفر. باب ما ذكر في الثناء على الله والصلاة على النبي ﷺ قبل الدعاء. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٢/ ٩٣).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٣٥٢) برقم (٤٨٦) كتاب الصلاة. باب ما يُقال في الركوع والسجود.

٧ صفر

يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

لقد كرَّم الله الإنسان وفضَّله على كثيرٍ ممَّن خَلَقَ، لكنَّ هذا الإنسان في غفلةٍ ولهوٍ عن عبادة ربِّه، فالكونُ مِن حوله يُسبِّحُ بحمْد ربِّه، الجبالُ تخشعُ لعظمة آياته، الحجارةُ تهبِط إجلالًا وخشوعًا لربِّها، بينما الإنسانُ غارقٌ في شهواته وملذَّاته، مُعرِضٌ عن ربِّه.

هل استشعرتَ يومًا أنَّ الطيورَ في السماء تُسبِّح ربَّها؟ هل خطر على قلبِك أنَّ الطعامَ الذي تأكله، والثوبَ الذي تلبَسُه يُسبِّحُ بحمْد ربِّه؟ أما بلغَك أنَّ صوتَ الرعد الذي يملأ القلوب فزعًا؛ إنَّما هو تسبيحٌ بحمْد الله سبحانه؟ ألا تعلم أنَّ كلَّ ما حولك من الجمادات والجبال والشجر والدوابِّ وكلِّ ما خَلَقَ الله؛ قد أُلهِم التسبيحَ بحمْد ربِّنا الجليل سبحانه، إلَّا البشر، فهم في غفلةٍ ولهوٍ؟ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

والتسبيح هو: تنزيه الله تعالى في ذاته وأفعاله وصفاته عن كلِّ ما لا يليق به.

وقيل: إنَّ التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء، والتنزيه من غيرهم، وفي الآية بيانُ أنَّ هذه الجمادات والحيوانات تُسبِّح الله عزَّ وجلَّ، وفي ذلك تقريعٌ للكُفَّار وتوبيخٌ لهم؛ حيث جعلوا الجمادات- التي من شأنها التسبيح لله سبحانه- شركاء يعبدونها كعبادته عزَّ وجلَّ.

والتسبيح هو تنزيه الله تعالى عن النقائص، وإثبات العظمة والكمال له وحده لا شريك له؛ ولذا قال حذيفة- رضي الله عنه- في وصف صلاة النبي ﷺ في جوف الليل:" وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ" رواه مسلم[2]، وفي حديث آخر قال ﷺ:" فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ" رواه مسلم[3].

يقول الشيخ السعدي:" نبَّه تعالى عباده على عظمته، وكمال سلطانه، وافتقار جميع المخلوقات له في ربوبيَّتها، وعبادتها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من حيوان وجماد ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ﴾ أي: صافَّاتٍ أجنحتَها في جوِّ السماء تُسبِّحُ ربَّها. ﴿كُلٌّ﴾ من هذه المخلوقات ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ﴾.

---

(١) النور ٤١.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٣٦) برقم (٧٧٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٣٤٨) برقم (٤٧٩) كتاب الصلاة. باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود.

أي: كلٌّ له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إمَّا بواسطة الرسل؛ كالجنّ والإنس والملائكة، وإمَّا بإلهام منه تعالى كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي: عَلِمَ جميع أفعالها، فلم يخفِ عليه منها شيءٌ، وسيُجازيهم بذلك، فيكون على هذا قد جمع بين علْمه بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علْمه بأعمالهم المتضمِّن للجزاء[١].

ولأهمِّيَّة التسبيح كُرِّر في القرآن في نحوٍ من تسعين موضعًا، وافتُتِحتْ به سبع سور سُمِّيت (المسبِّحات) وخُتِمتْ به أربع سور، وجاء بصيغ مُتعدِّدة؛ فاستخدم فيه الماضي ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[٢]، والمضارع ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾[٣]، والأمْر ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾[٤]، والمصدر ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٥]، وما ذلك إلَّا لإثبات أنَّ التسبيح لله تعالى هو شأن أهل السماوات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي والمستقبل، وأنَّ المؤمن ينبغي له أن يلازمه، ولا يغفل عنه، ولا يفتر لسانه منه، كما قال الله تعالى عن الملائكة المسبِّحين ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[٦].

من عَظَمَةِ التسبيح وأهمِّيَّته أنَّ من حِكمة إرسال الرسول- عليه الصلاة والسلام- أن يُعلِّم الناس التسبيح فيُسبِّحوا الله تعالى ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾[٧].

والتسبيح- وإن كان قولًا- فهو اعتقاد القلب مع قول اللِّسان، بأن يعتقد المؤمن وهو يُسبِّح ما تضمَّنه التسبيح من تنزيه الله تعالى وتعظيمه، مع حضور قلبه أثناء تسبيحه؛ ليجتمع عمل القلب مع عمل اللسان فيكون التسبيح في أعلى درجات العمل الصالح، وينتفع به القلب انتفاعًا كبيرًا.

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٧٠).

(٢) الحديد ١.

(٣) الجمعة ١.

(٤) الواقعة ٧٤.

(٥) المؤمنون ٩١.

(٦) الأنبياء ١٩-٢٠.

(٧) الفتح ٨-٩.

والخلاصة : أنَّ التسبيح مِن أحبِّ الكلام إلى الله تعالى، يقول النبي ﷺ:" أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ" رواه مسلم(١).

وأحبُّ إلى النبي ﷺ ممَّا طلعت عليه الشمس، كما قال ﷺ:" لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ" رواه مسلم(٢).

كما أنَّ التسبيح مُكفِّر للذُّنوب، فقد ثبت عنه ﷺ أنَّه قال:" مَن قال حين يُصبِح وحين يُمسي: سبحان الله وبحمده مائة مرَّة، غُفِرتْ خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر" رواه مسلم(٣).

وهو أيضًا غراس الجنَّة، ففي حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنَّه قال:" لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ " أخرجه الترمذي(٤).

الشمسُ والبدرُ مِن أنوارِ حِكمتِهِ ... والبرُّ والبحرُ فيضٌ مِن عطاياهُ
الطيرُ سبَّحَهُ والوحشُ مجَّدَهُ ... والموجُ كبَّرَهُ والحُوتُ ناجاهُ
والنملُ تحتَ الصُّخورِ الصُّمِّ قدَّسَهُ ... والنَّحلُ يَهتِفُ حمدًا في خَلاياهُ(٥)

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٦٨٥) برقم (٢١٣٧) كتاب الآداب. باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧١) برقم (٢٦٩٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧١) برقم (٢٦٩٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل التهليل والتسبيح والدعاء. ولفظه:" مَن قال: حين يُصبِح وحين يُمسي: سبحان الله وبحمده، مائة مرَّة، لم يأتِ أحدٌ يوم القيامة بأفضلَ ممَّا جاء به؛ إلَّا أحدٌ قال مثل ما قال أو زاد عليه". ولفظ:" غُفِرَتْ خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر" إنَّما ورد في حديث الأذكار دبر الصلاة كما في صحيح مسلم (١/ ٤١٨) برقم (٥٩٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب استحباب الذِّكْر بعد الصلاة وبيان صفته. ولفظه:" مَن سبَّح الله في دبر كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين، وحَمَدَ الله ثلاثًا وثلاثين، وكبَّر الله ثلاثًا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال تمام المائة: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير؛ غُفِرَتْ خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر".

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥١٠) برقم (٣٤٦٢) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٢١٤).

(٥) يُنظَر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة (٢/ ٣٢، بترقيم الشاملة آليًّا). موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة، المؤلف: محمد راتب النابلسي، الناشر: دار المكتبي- سورية- دمشق- الحلبوني- جادة ابن سينا، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.



٨ صفر

وَهُزِّي إليكِ بجذعِ النَّخلةِ (عن الأخْذ بالأسباب)

إنَّ الأخْذ بالأسباب من أخصِّ صفات المؤمنين، ومن أهمِّ الصفات التي يجب أن تستقرَّ في قلب المؤمن وكيانه؛ وعليه أن يبذل قصارى جهده ووقته؛ وأن يتسلَّح بسلاح العلم والمعرفة، والكياسة والفطنة، والشجاعة والمروءة، وغير ذلك من الأسباب؛ ومن هنا فإنَّ التوكُّل الحقيقي على الله لا يصِحُّ إلَّا مع الأخْذ بالأسباب.

قال الشيخ السعدي- رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾[1]، أي: طريًّا لذيذًا نافعًا. ﴿فَكُلِي﴾ من التمر، ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ بعيسى. فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل والمشرب الهني[2].

وقال الحافظ ابن كثير- رحمه الله تعالى-: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ أي: وخذي إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عبَّاس. وقيل: مثمرة. قال مجاهد: كانت عجوة. والظاهر أنَّها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه: ولهذا امتنَّ عليها بذلك، أن جعل عندها طعامًا وشرابًا، فقال: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾، أي: طيبي نفسًا، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيءٍ خيرٌ للنُّفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة [3].

يقول ابن رجب الحنبلي: واعلم أنَّ تحقيق التوكُّل لا يُنافي السعي في الأسباب التي قدَّر الله تعالى المقدورات بها، وجرتْ سُنَّتُه في خلْقه بذلك؛ فإنَّ الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمْره بالتوكُّل؛ فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكُّل بالقلب عليه إيمان به؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾[5] [6]، فالحذر والإعداد من الأسباب اللازمة عند ملاقاة الأعداء. والانتشار والسعي لا بُدَّ منهما لاستجلاب الرزق وتحصيله.

---

(١) مريم ٢٥.
(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٩٢).
(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٢٥).
(٤) النساء ٧١.
(٥) الأنفال ٦٠.
(٦) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩٨). جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقِّق: شعيب الأرناؤوط- إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

وَاعْلَمْ بِأَنَّك آخِذٌ كُلَّ الَّذِي لَك فِي الْكِتَابِ مُقَدَّرٌ مَسْطُورُ[١]

وعن إثبات الأسباب يقول ابن القيِّم في كتابه مدارج السالكين: واعلم أنَّ نُفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكُّلٌ البتَّة، لأنَّ التوكُّلَ من أقوى الأسباب في حصول المتوكَّل فيه؛ فهو كالدعاء الذي جعله الله سببًا في حصول المدعوِّ به؛ فإذا اعتقد العبد أنَّ توكُّله لم ينصبه الله سببًا ولا جعل دعاءه سببًا لنيل شيء؛ فإنَّ المتوكَّل فيه المدعوَّ بحصوله؛ إن كان قد قُدِّر حصل؛ توكَّل أو لم يتوكَّل، دعا أو لم يدع. وإن لم يُقدَّر لم يحصل؛ توكَّل أيضًا أو ترَك التوكُّل. وصرَّح هؤلاء- أي نُفاة التوكُّل- أنَّ التوكُّل والدعاء عبوديَّة محضة لا فائدة لهما إلَّا ذلك، ولو ترك العبد التوكُّل والدعاء؛ ما فاته شيءٌ ممَّا قُدِّرَ له. وهذا خطأ منهم؛ والصحيح الواقع هو أن يكون الله تعالى قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكُّل والدعاء، فنصب الدعاء والتوكُّل سببَينِ لحصول المطلوب، وقضى الله بحصوله إذا فعل العبد سببه، فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبَّب. وهذا كما قضى بحصول الولد إذا جامع الرجل من يحبلها، فإذا لم يُجامِع لم يُخْلَقِ الولد، وقضى بحصول الشبع إذا أكل، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو. وقضى بدخول الجنَّة إذا أسلم، وأتى بالأعمال الصالحة؛ فإذا ترَكَ الإسلام ولم يعمل الصالحات لم يدخلها أبدًا. فالتوكُّل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه؛ فمَن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكُّل، ولكن من تمام التوكُّل عدم الركون إلى الأسباب، وقطْع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها[٢].

والأخْذ بالأسباب سُنَّةٌ كونيَّةٌ وشرعيَّةٌ، لذا فقد أخَذَ الأنبياء بالأسباب، فهذا نوح- عليه السلام- يصنع السَّفينة هو ومَن معه بوحي من الله سبحانه؛ أخْذًا بأسباب النَّجاة، قال سبحانه: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾[٣].

ويعقوب- عليه السلام- يقول لولده يوسف: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾[٤]، إخفاءً للنعمة عن أعين الحاسدين وأسماعهم؛ لئلَّا يكيدوا له؛ أخْذًا بالأسباب.

ويوسف الصِّدِّيق- عليه السلام- يأخذ بالأسباب ويضع خطَّة لإنقاذ مصر من الجدب والمجاعة، ويتلوها على ملئه قائلًا عن القمح: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾[٥]؛ لئلَّا يتعفَّن، وتصيبه الآفات.

---

(١) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص ١٩٣). أدب الدنيا والدين، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، الناشر: دار مكتبة الحياة، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٩٨٦م.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٢/ ١١٩-١٢٠).

(٣) هود ٣٧.

(٤) يوسف ٥.

(٥) يوسف ٤٧.

كما وجَّه الله عباده إلى الأخْذ بالأسباب في كلِّ شؤونهم الدينيَّة والدنيويَّة: قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[١]، وقال النبي ﷺ: "اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ" رواه البخاري ومسلم[٢].

والخلاصة: أنَّه يجب على أبناء الأُمَّة الإسلاميَّة أن يتجاوزوا مرحلة الوهن والغُثاء إلى مرحلة القُوَّة والبِناء، وأن يكفُّوا عن التراخي، والأحلام والأُمنيَّات، وينهضوا بكلِّ الأسباب التي تُوصِّلهم إلى التمكين وتُؤهِّلهم له.

وإن كان يُشترَط لصحَّة الأخْذ بالأسباب أن تكون الأسبابُ مُباحةً شرعًا، وألَّا يُتوصَّل بها إلى معصية، وألَّا يعتقد العبد أنَّها تنفع وتضرُّ بذاتها دون إرادة الله سبحانه وحِكمته وقُدرته.

قال الشاعر القحطاني:

توكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كلِّ حَاجَةٍ	ولا تُؤثِرَنَّ العجزَ يومًا على الطَّلَبْ
ألمْ ترَ أنَّ اللهَ قالَ لمريمٍ	وَهُزِّي إليك الجِذعَ يَسَّاقَطُ الرُّطَبْ
ولوْ شاءَ أن تَجنيهِ مِن غيرِ هَزِّهِ	جَنَتْهُ، ولكنْ كلُّ شيءٍ لَهُ سَبَبْ
وقدْ كانَ حبُّ اللهِ أولى برِزْقِها	كما كانَ حبُّ الخَلْقِ أدعى إلى النَّصَبْ

(١) الملك ١٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٧١) برقم (٤٩٤٩) كتاب تفسير القرآن. باب {فسنُيسِّره للعُسرى} الليل ١٠. وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٠) برقم (٢٦٤٧) كتاب القَدَر. باب كيفيَّة خلْق الآدمي في بطن أُمِّه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

٩ صفر

لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ

إنَّ حقيقة التوكُّل تبدأ بمعرفة الربِّ سبحانه وصفاته، وأنَّه القادر الكافي الحسيب الذي بيده كلُّ شيءٍ، وإليه المرجع في كلِّ شيءٍ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ فكلُّ مَن كان بالله وصفاته أعلمَ وأعرفَ؛ كان توكُّله أصحَّ وأقوى، وأنَّ حقيقة التوكُّل: توحيد القلب؛ وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحَّة التوكُّل، فإنَّ العبد متى التفتَ إلى غير الله؛ أخذ ذلك الالتفاتُ شُعبةً من شُعب قلبه، فنقص مِن توكُّله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة.

عن عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:" لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا" رواه الترمذي وابن ماجه[١].

قال العلَّامة ابن عثيمين- رحمه الله-: يقول النبي ﷺ حاثًّا أُمَّته على التوكُّل:" لو أنَّكم تتوكَّلون علي الله حقَّ توكُّله"؛ أي: توكُّلًا حقيقيًّا، تعتمدون علي الله عزَّ وجلَّ اعتمادًا تامًّا في طلب رزقكم وفي غيره" لرزقكم كما يَرزقُ الطير"؛ الطيرُ رزقُها علي الله عزَّ وجلَّ، لأنَّها طيورٌ ليس لها مالك، فتطير في الجوِّ، وتغدو إلى أوكارها، وتَستجلِبُ رزق الله عزَّ وجلَّ[٢].

أمَّا عن تعريف التوكُّل فيقول ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-: التوكُّل هو الثقة بالله، وصدْق التوكُّل أن تَثِق في الله وفيما عند الله، فإنَّه أعظم وأبقى ممَّا لديك في دنياك.

وقال الشيخ أبو حامد- رحمه الله- في كتابه مختصر منهاج القاصدين: قد يُظنُّ أنَّ معنى التوكُّل ترْكُ الكسب بالبدن، وترْك التدبير بالقلب، والسقوطُ على الأرض كالخرقة الملقاة أو كلحمٍ على وضم، وهذا ظنُّ الجُهَّال، فإنَّ ذلك حرامٌ في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكِّلين[٣]، فكيف يُنال

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٧٣) برقم (٢٣٤٤) أبواب الزهد. باب في التوكُّل على الله. وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٦٦) برقم (٤١٦٤) أبواب الزهد. باب التوكُّل واليقين. والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٦٢٠).

(٢) يُنظَر: شرح رياض الصالحين (١/ ٥٥٧). شرح رياض الصالحين، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦هـ.

(٣) مختصر منهاج القاصدين (ص ٣٣٣). مُخْتَصرُ مِنْهَاجِ القَاصِدِين، المؤلف: نجم الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٨٩هـ)، قدَّم له: الأستاذ محمد أحمد دهمان، الناشر: مكتَبَةُ دَارِ البَيَان، دمشق، عام النشر: ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

مقام من مقامات الدين بمحظُورٍ من محظُورات الدين؟ بل نكشف عن الحقِّ فيه، فنقُول: إنَّما يظهر تأثيرُ التوكُّل في حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده[(١)].

وللتوكُّل أقسام ومراتب؛ فهناك:

١- توكُّل العبد على الله في استقامة نفسه وإصلاحها دون النظر إلى غيره.

٢- توكُّل العبد على الله في استقامة نفسه، وكذلك في إقامة دين الله في الأرض ونصْره، وإزالة الضلال عن عبيده، وهدايتهم والسعي في مصالحهم، ودفْع فساد المفسدين، ورفْعه، والأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣- توكُّل على الله في جلْب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية؛ كالرزق والزواج، والذُّرِّيَّة والعافية، والانتصار على العدو الظالم، أو دفْع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

وبين القسم الثاني والثالث من الفضْل ما لا يُحصيه إلَّا الله، فمتى توكَّل عليه العبد في النوع الثاني حقَّ توكُّله؛ كفاه النوع الثالث تمام الكفاية، ومتى توكَّل عليه في النوع الثالث دون الثاني كفاه أيضًا؛ لكن لا يكون له عاقبة المتوكِّل فيما يُحِبُّه ويرضاه.

٤- توكُّل على الله في دفْع مُحرَّم من إثم أو فاحشة، أو دفْع مأمور به[(٢)]. وللتوكُّل أهمِّيَّته ومنزلته في العقيدة والإيمان والسلوك، فالتوكُّل على الله خُلُقٌ عظيمٌ من أخلاق الإسلام، وهو من أعلى مقامات اليقين، وأشرف أحوال المقرَّبين، وهو نظام التوحيد وجماع الأمْر؛ كما أنَّه نصف الدين والإنابة، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، وهو مفتاح كلِّ خيرٍ؛ لأنَّه أعلى مقامات التوحيد، وعبادة من أفضل العبادات، وهو فريضة يجب إخلاصه لله تعالى وعقيدة إسلاميَّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[(٣)].

---

(١) يُنظَر: شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السُّنن (١٠/ ٣٣٣٦)؛ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣٢٠). شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمَّى بـ (الكاشف عن حقائق السُّنن)، المؤلف: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ)، المحقِّق: د. عبد الحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة- الرياض)، عدد الأجزاء: ١٣ (١٢ ومجلد للفهارس) (في ترقيم مسلسل واحد)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، المؤلف: علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

(٢) أرشيف ملتقى أهل التفسير.

(٣) المائدة ٢٣.

إنَّ التوكُّل شرطٌ من شروط الإيمان، ولازمٌ من لوازمه ومقتضياته، فكلَّما قوي إيمان العبد كان توكُّله أكبر، وإذا ضعُف الإيمان ضعُف التوكُّل؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[١]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾[٢].

والتوكُّل مقام جليل القدْر، عظيم الأثَر، جعله الله سببًا لنيل محبَّته؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾[٣]. ولكن على المسلم الجمْع بين التوكُّل والأخْذ بالأسباب: فعن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رجُلٌ: يا رسُول الله؛ أُرسِلُ ناقتي وأتوكَّلُ، أم أعقلها وأتوكَّل؟ قال ﷺ:" اعقلْها وتوكَّلْ" رواه الترمذي[٤].

ويُعجبُني قول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" فالالتفات إلى الأسباب شِركٌ في التوحيد، ومحو الأسباب- أن تكون أسبابًا- نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلِّيَّة قدحٌ في الشرع، بل العبد يجب أن يكون توكُّله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله سبحانه وتعالى، والله يُقدِّر له من الأسباب من دعاء الخلْق وغيرهم ما شاء"[٥].

والدليل على أنَّ الالتفات إلى الأسباب شِرْكٌ في التوحيد: عن زيد بن خالد الجُهني- رضي الله عنه- أنَّهُ قال: صلَّى لنا رسُولُ الله ﷺ صلاة الصُبح بالحُديبية على إثر سماء كانت من الليل فلمَّا انصرف؛ أقبَلَ على النَّاس، فقال:" أتدرُون ماذا قال ربُّكُم؟ قالُوا: اللهُ ورسُولُهُ أعلمُ. قال: قال: أصبح من عبادي مُؤمنٌ بي وكافرٌ بي، فأمَّا من قال: مُطِرنا بفضْل الله ورحمته فذلك مُؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأمَّا مَن قال: مُطِرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافرٌ بي مُؤمنٌ بالكوكب" رواه البخاري ومسلم[٦].

---

(١) آل عمران ١٢٢.

(٢) يونس ٨٤.

(٣) آل عمران ١٥٩.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٦٨) برقم (٢٥١٧) أبواب الزهد. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٦/ ١٧).

(٥) الواسطة بين الحقِّ والخلْق (ص ٣٣). الواسطة بين الحقِّ والخلْق، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، المحقِّق: محمد بن جميل زينو، الناشر: مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ١٢٢) برقم (٤١٤٧) كتاب المغازي. باب غزوة الحديبية. ومسلم في صحيحه (١/ ٨٣) برقم (٧١) كتاب الإيمان. باب بيان كُفْر مَن قال: مُطِرْنا بالنَّوء.



وأمَّا الدليل على أنَّ إلغاء الأسباب قدحٌ في العقل والشرع؛ فما روى الطبراني عن معاوية بن قرة قال: لقي عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه- ناسًا من أهل اليمن فقال: مَن أنتم؟ قالوا: مُتوكِّلون. قال: كذبتم، ما أنتم مُتوكِّلون! إنَّما المتوكِّل الذي ألقى حبَّة في الأرض وتوكَّل على الله(١).

والخلاصة : أنَّه ينبغي على الإنسان أن يعتمد على الله تعالى حقَّ الاعتماد. وأن يعلم علم اليقين أنَّه ما من دابَّةٍ في الأرض إلَّا على الله رزقها، حتَّى الطير في جوِّ السماء، لا يُمسِكه في جوِّ السماء إلَّا الله، ولا يرزقه إلَّا الله عزَّ وجلَّ. مع ضرورة الأخْذ بالأسباب.

وفي بيان المعنى الحقيقي للتوكُّل؛ يقول الإمام الشافعي- رحمه الله-:

تَوكَّلتُ في رزقي عَلَى اللهِ خَالقِي ... وأيقنتُ أنَّ اللهَ لا شَكَّ رَازقِي

ومَا يكُ من رزقٍ فليسَ يَفوتُني ... ولَو كَانَ في قاعِ البحارِ العوامقِ

سيأتي به اللهُ العظيمُ بفضْلِهِ ... ولو لم يكنْ مِنِّي اللِّسانُ بناطقِ

ففي أيِّ شيءٍ تذهبُ حسرةً ... وقد قسَّمَ الرحمنُ رزقَ الخلائقِ(٢)

---

(١) لم أقف عليه عند الطبراني، وإنَّما رواه الدينوري في المجالَسة وجواهر العلم (٧/ ١٣٣) برقم (٣٠٢٧) وذَكَرَ المحقِّق أنَّ إسناده منقطع. المجالَسة وجواهر العلم، المؤلف: أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى : ٣٣٣هـ)، المحقِّق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر : جمعية التربية الإسلامية (البحرين- أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت- لبنان)، تاريخ النشر: ١٤١٩هـ.

(٢) يُنظَر ديوان الإمام الشافعي (ص ١١٠). ديوان الإمام الشافعي المسمَّى (الجوهر النفيس في شِعْر الإمام محمد بن إدريس)، إعداد وتعليق وتقديم: محمد إبراهيم سليم، نشْر: مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة- مصر.

١٠ صفر

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ

إنَّ المسلم لا يخلو حالُه من ثلاثة أحوال: إمَّا نعمة نازلة له من ربِّه، أو بلية يُصاب بها، أو ذنب صادر منه في جنب ربِّه، وهو مع النعمة واجبُه الشكر، ومع البلية واجبُه الصبر، ومع الذنب واجبُه الاستغفار. ومن أنواع الابتلاءات الابتلاء بالمرض، والمرض قد يكون تكفيرًا للسَّيِّئات أو رفعة للدرجات أو تمحيصًا وامتحانًا، قال بعض السلف: لولا المصائب لوردنا يوم القيامة مفاليس، وكان السلف يفرح أحدهم بالبلاء، كما يفرح أحدنا بالرخاء.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ يقول الشيخ السعدي في تفسير هذه الآيات:" أخبر تعالى أنَّه لا بُدَّ أن يَبتلي عباده بالمحن، ليتبيّن الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سُنَّته تعالى في عباده؛ لأنَّ السرَّاء لو استمرَّتْ لأهل الإيمان؛ ولم يحصل معها محنة؛ لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحِكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشرِّ. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردُّهم عن دينهم، فما كان الله ليُضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنَّه سيبتلي عباده ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ من الأعداء ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ أي: بشيءٍ يسيرٍ منهما؛ لأنَّه لو ابتلاهم بالخوف كلِّه أو الجوع لهلكوا، والمحن تُمحِّص لا تهلك، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخْذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق وغير ذلك، ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يُحِبُّه، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ﴾أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلِّها، والخُضَر ببَرَد، أو برْد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد ونحوه ، فهذه الأمور لا بُدَّ أن تقع، لأنَّ العليم الخبير أخبر بها، فوقعتْ كما أخبر، فإذا وقعتِ انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع حصلت له المصيبتان: فوات المحبوب، وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتثال أمْر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له السخط الدالُّ على شدَّة النقصان، وأمَّا مَن وفَّقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخُّط، قولًا وفعلًا واحتسب أجرها عند الله، وعلم أنَّ ما يُدركه

من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقِّه، لأنَّها صارت طريقًا لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله وفاز بالثواب"(١).

قال الشيخ ابن عثيمين في شرحه على رياض الصالحين:" الإنسان في هذه الدنيا لا يمكن أن يبقي مسرورًا دائمًا، بل هو يومًا يُسَرُّ ويومًا يحزن، ويومًا يأتيه شيءٌ ويومًا لا يأتيه، فهو مُصابٌ بمصائب في نفسه، ومصائب في بدنه، ومصائب في مجتمعه، ومصائب في أهله، ولا تُحصَى المصائب التي تصيب الإنسان، ولكنَّ المؤمن أمره كلُّه خيرٌ، إن أصابتْه ضرَّاء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابتْه سرَّاء شكر فكان خيرًا له، فإذا أُصِبتَ بالمصيبة فلا تظنَّ أنَّ هذا الهمَّ الذي يأتيك، أو هذا الألم الذي يأتيك ولو كان شوكة، لا تظنَّ أنَّه يذهب سُدىً، بل ستُعوَّض عنه خيرًا منه، ستُحطُّ عنك الذُّنوب كما تحطُّ الشجرة ورقها، وهذا من نعمة الله، وإذا زاد الإنسان على ذلك الصبر والاحتساب، يعني: احتساب الأجر، كان له مع هذا أجر(٢).

ثَمَانِيَةٌ تَجْرِيْ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ ... وَلا بُدَّ لِلإِنْسَانِ يَلْقَى الثَّمَانِيَهْ
سُرُوْرٌ وَحُزْنٌ، وَاجْتِمَاعٌ وَفُرْقَةٌ ... وَعُسْرٌ وَيُسْرٌ، ثُمَّ سُقْمٌ وَعَافِيَهْ(٣)

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ" رواه البخاري ومسلم(٤).

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٦).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٤٣).

(٣) يُنظَر: المحاضرات في اللغة والأدب (ص ٢١، بترقيم الشاملة آليًّا). المحاضرات في اللغة والأدب، المؤلف: الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي، نور الدين اليوسي (المتوفى: ١١٠٢هـ).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٤) برقم (٥٦٤١) كتاب المرضى. باب ما جاء في كفَّارة المرض. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٢) برقم (٢٥٧٣) كتاب البر والصلة والآداب. باب ثواب المؤمن فيما يُصيبه من مرض أو حزن، أو نحو ذلك حتَّى الشوكة يُشاكُها.

وقد يكونَ المرضُ سببًا لرفْع منزلة المريض في الآخرة، روى ابن حبَّان في صحيحه والحاكم في مستدركه من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّه ﷺ قال:" إِنَّ الرَّجُلَ تَكُونُ لَهُ المنزِلَةُ عِندَ اللهِ فَمَا يَبلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ يَبتَلِيهِ بِمَا يَكرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ ذَلِكَ"[١].

ومن الوصايا التي يُوصَى بها المريض:

أوَّلًا: إحسان الظنِّ بالله تعالى: وأنَّ مَن أحسنَ ظنَّه بالله؛ رزقه الله الراحة النفسية، وطمأنينة القلب، روى ابن حبَّان في صحيحه من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" إنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ شَرًّا فَلَهُ"[٢].

ثانيًا: الإكثار من ذِكْر الله ودعائه والإلحاح عليه في الدعاء، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[٣].

ثالثًا: أنَّ على المريض ألَّا يتعلَّق بالأسباب كالمستشفيات والأطباء، والواجب أن يكون تعلُّقُ القلب بالذي أنزل الداء ولا يرفعه إلَّا هو، فإنَّه سبحانه هو الشافي لا شفاء إلَّا شفاؤه، ولا يرفع المرض إلَّا هو، سواء كان مرضًا بدنيًّا أو نفسيًّا، قال تعالى ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٥].

---

(١) رواه ابن حبَّان في صحيحه (٧/ ١٦٩) برقم (٢٩٠٨). والحاكم في مستدركه (١/ ٤٨٨) برقم (١٢٧٥). صحيح ابن حبَّان بترتيب ابن بلبان، المؤلف: محمد بن حبَّان بن أحمد بن حبَّان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤ هـ)، المحقِّق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م. والحديث صحَّحه الألباني كما في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبَّان (٤/ ٤٥٥). التعليقات الحسان على صحيح ابن حبَّان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذِّه من محفوظه، مؤلِّف الأصل: محمد بن حبَّان بن أحمد بن حبَّان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير أبو الحسن علي بن بلبان بن عبد الله علاء الدين الفارسي الحنفي (المتوفى: ٧٣٩هـ)، مؤلِّف التعليقات الحسان: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

(٢) رواه ابن حبَّان في صحيحه (٢/ ٤٠٥) برقم (٦٣٩) ولفظه:« إنَّ اللهَ جلَّ وعلا يقول: أنا عند ظنِّ عبدي بي، إنْ ظنَّ خيرًا فله، وإنْ ظنَّ شرًّا فله». والحديث صحَّحه الألباني كما في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبَّان (٢/ ٩٤).

(٣) البقرة ١٨٦.

(٤) الأنعام ١٧.

(٥) الشعراء ٨٠.



رابعًا: على المريض أن يرقي نفْسَه بالرقية الشرعيَّة، كالفاتحة والمعوِّذتين وآية الكُرسيِّ، وبالأدعية المأثورة.

خامسًا: على المريض ألَّا ييأس من الشفاء، فالله على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٢) وأيوب- عليه السلام- مكث في البلاء ثماني عشرة سنة، ثم كشف الله عنه وشفاه.

والخلاصة: أن يصبر المسلم على المرض إذا نزل به، وأن يبذل أسباب التداوي ويطرق أبواب الشفاء، ولكن لا يُعلِّق قلبه بالأسباب من طبيب أو دواء أو غيره ، بل يُعلِّق قلبه بالله، فالشفاء بيده وحده، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(٣)، ولكن إذا كان المسلم غير مبتلى بمرض أو غيره فلْيسأَلْ ربَّه العافية، فإنَّها نعمة عظيمة لا يعرف قدْرَها إلَّا مَن افتقدها، فإذا قدَّر الله عليه المرض وجب عليه الصبر وعدم الجزع.

---

(١) يوسف ٨٧.

(٢) يس ٨٢.

(٣) الشعراء ٨٠.

١١ صفر

تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ

نحن نعيش زمانًا طغتْ فيه المادِّيَّات، وانشغل الناس فيه عن الآخرة بتحصيل الدنيا، وجمْعِ الأموال، وتناسى النَّاسُ الآخِرةَ إلَّا مَن رحِمَ اللهُ وعصم، وتناسوا أنَّ هذه الدنيا ما هي إلَّا مزرعة للآخرة، ومحطَّة من محطَّات الوصول لدار القرار، ولقد رأينا مَن يتقاتل من أجْل حفنة من مال، ومَن يبيع مبادئه ودينه من أجل درهم أو دينار أو دولار، وهذا انحطاط وسفول وتدنِّي، والحقُّ أنَّ شهوة حُبِّ المال عمَّتْ غالب الخلْق حتَّى فُتِنوا بالدنيا وزهرتها، وصارتْ غاية قصدهم، لها يطلبون، وبها يرضون، ومن أجلها يغضبون، وبسببها يُوالون، وعليها يُعادون، وكم قُطِّعتْ أرحامٌ في سبيلها، وسُفِكتْ دماءٌ بسببها، ووقعتْ فواحش من أجلها، ونزلت القطيعة وحلَّت البغضاء، وفُرِّق بين الأخ وأخيه، وتقاتل الأب مع ابنه، وتعادى الأصحاب والخلان، والسبب: الدنيا.

كثيرٌ من الناس لا يعرفون حقيقة الدنيا، قال الشيخ علي الطنطاوي: إنَّ لذَّات الدنيا مثل السراب، ألا تعرفون السراب؟ تراه من بعيدٍ غديرًا، فإذا جئتَه لم تجدْ إلَّا الصحراء، فهو ماء ولكن من بعيد(١).

وقال أيضًا: الدنيا كلُّها حلم كاذب: الحبُّ، والمال، والصِّحَّة، والسعادة، والمجد. لا يخلد شيء من ذلك ولا يبقى(٢).

وهي أوَّل شهوةٍ حذَّر منها النبي ﷺ أُمَّته حيث قال ﷺ:" إنَّ الدنيا حلوة خضرة، وإنَّ الله مُستخلِفُكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتَّقوا الدُّنيا واتَّقوا النِّساء" رواه مسلم(٣)، وقال أيضًا:" إنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي المالُ" رواه الترمذي(٤).

---

(١) صور وخواطر (ص ١٢). صور وخواطر، المؤلف: علي بن مصطفى الطنطاوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، راجعه وصحَّحه وعلَّق عليه: حفيد المؤلِّف مجاهد مأمون ديرانية، الناشر: دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة: العاشرة، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

(٢) قصص من التاريخ (ص ٤٩). قصص من التاريخ، المؤلف: علي بن مصطفى الطنطاوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، راجعه وصحَّحه وعلَّق عليه: حفيد المؤلِّف مجاهد مأمون ديرانية، الناشر: دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة: العاشرة، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٧م.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٩٨) برقم (٢٧٤٢) كتاب الرقاق. باب أكثر أهل الجنَّة الفقراء، وأكثر أهل النَّار النِّساء، وبيان الفتنة بالنِّساء.

(٤) رواه الترمذي في جامعه برقم (٢٣٣٦) أبواب الزهد. باب ما جاء أنَّ فتنة هذه الأُمَّة في المال. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٣٣٦).



ولأنَّ الرزق مضمون، فإنَّ النبي ﷺ لم يخشَ علينا من الفقر؛ بل خاف علينا من الغنى، فأقسم ﷺ:"واللهِ ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسَط عليكم الدنيا كما بُسِطتْ على مَن كان قبلكم؛ فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم" رواه البخاري ومسلم(١)، وقال ﷺ:"إذا فُتِحتْ عليكم خزائن فارس والروم، أيُّ قومٍ أنتم؟ قال عبد الرحمن بن عوف- رضي الله عنه-: نقول كما أمرنا الله، قال رسول الله ﷺ: أو غير ذلك؟ تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون" رواه ابن ماجه(٢).

لقد بات الناس يغترفون من الدنيا دون وعي ودون تحرٍ، فالهدف الجمْع منها، وعليه لا يُبالي كثيرٌ من الناس من أيِّ الطرق يجمع المال، وقد تنبَّأ النبي ﷺ بهذا الزمان- ولعلَّه زماننا الذي نعيش فيه- فقال:" ليأتيَنَّ على النَّاس زمانٌ لا يُبالي المرءِ بما أَخَذَ المال؟ أمن حلالٍ أم من حرامٍ؟" رواه البخاري(٣).

وفي صحيح البخاري أيضًا عن النبي ﷺ أنَّه قال: تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وإذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ(٤).

إنَّ هناك عبيدًا كُثْرٌ لهذه الدنيا، فإنَّ الإنسان أسيرٌ لما يطمع فيه، وإذا زاد الحرص صار عبدًا لما يطلب، وقديمًا قالوا:

العبدُ حُرٌّ ما قنع ... والحُرُّ عبدٌ ما طمع(٥)

وقال قائِلٌ أيضًا:

أطعتُ مطامعي فاستعبدتْني ... ولو أنِّي قنعتُ لكنتُ حُرًّا(٦)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٨٥) برقم (٤٠١٥) كتاب المغازي. باب بدون ترجمة. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٧٣) برقم (٢٩٦١) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) رواه ابن ماجه في سُننه (٢/ ١٣٢٤) برقم (٣٩٩٦) كتاب الفتن. باب المال. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (٨/ ٤٩٦).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٩) برقم (٢٠٨٣) كتاب البيوع. باب قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافًا مُضاعَفة واتقوا الله لعلكم تفلحون} آل عمران: ١٣٠.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٣٤) برقم (٢٨٨٦) كتاب الجهاد والسِّيَر. باب الحراسة في الغزو في سبيل الله.

(٥) ذَكَرَه شيخ الإسلام في عددٍ مِن كُتُبه، يُنظَر: العبوديَّة (ص ٨١). العبوديَّة، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقِّق: محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: السابعة المجدَّدة، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

(٦) ذَكَرَه الذهبي من ألفاظ الحلَّاج في ترجمته كما في تاريخ الإسلام (٧/ ٢٦). تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨ هـ)، المحقِّق: الدكتور بشار عوَّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.

وقال النبي ﷺ:" ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنمٍ بأفسدَ لها من حرْص المرء على المال والشرف لدينه" رواه الترمذي[(١)].

وقال عليٌّ بن أبي طالب- رضي الله عنه-: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع[(٢)].

وقال ابن القيِّم- رحمه الله-: لصُّ الحرص لا يمشي إلَّا في ظلام الهوى[(٣)].

فلو كانتِ الدُّنيا جزاءً لمحسِنٍ إذًا لم يكن فيها معاشٌ لظالمِ
لقد جَاعَ فيها الأنبياء كَرَامةً وقد شبِعتْ فيها بُطونُ البهائمِ[(٤)]

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(٥)].

قال الشيخ السعدي عند تفسيره لهذه الآية: وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مُطابِقٌ لحالة الدنيا، فإنَّ لذَّاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك؛ يزهو لصاحبه- إن زها- وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتمَّ اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها، فذلك ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نبت فيها من كلِّ صنفٍ، وزوجٍ بهيجٍ ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ كالحبوب والثمار، وممَّا تأكل ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ كأنواع العشب، والكلأ المختلف الأصناف، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي: تزخرفتْ في منظرها، واكتستْ في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمُتفرِّجين، وآية للمُتبصِّرين،

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٨٨) برقم (٢٣٧٦) أبواب الزهد. باب بدون ترجمة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٣٧٦).

(٢) يُنظَر: مجمع الأمثال (٢/ ١٦٢). مجمع الأمثال، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (المتوفى: ٥١٨ هـ)، المحقِّق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة- بيروت، لبنان.

(٣) الفوائد لابن القيِّم (ص ٥٠). الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيِّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

(٤) ذَكَرَها عددٌ من أهل العلم دون ذكر قائلها، يُنظَر: تفسير القرطبي (١٦/ ٨٨). الجامع لأحكام القرآن= تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية— القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

(٥) يونس ٢٤.

فصرتَ ترى لها منظرًا عجيبًا ما بين أخضر وأصفر وأبيض وغيره، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: حصل معهم طمعٌ بأنَّ ذلك سيستمرُّ ويدوم، لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه، فبينما هم في تلك الحالة ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: كأنَّها ما كانت فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء(١).

ليست هذه دعوة لأن نترهبن ونترك الحياة ونعتزل الناس في كهف، فليس للمؤمن أن يترك الدنيا ويبغضها، ولكن يوازن بين الأمور ويضع كُلًّا من الأشياء في نصابها الصحيح، فيعرف أنَّ الدنيا وسيلة وليست غاية، وأنَّها تُحمَد طالما أنَّها في يد الإنسان وليست في قلبه.

فالتوازن بين أمر الدنيا والآخرة أمرٌ مطلوبٌ، فقد كان لابن الزبير- رضي الله عنه- مائة غلام، يتكلَّم كلُّ غلامٍ منهم بلُغةٍ أخرى، فكان ابن الزبير- رضي الله عنه- يُكلِّم كلَّ واحدٍ منهم بلُغتِه، فكان الناظر إليه في أمر دنياه يقول: هذا رجلٌ لم يُرِد اللهَ طرفة عين، ويقول الناظر في أمر آخرته: هذا رجلٌ لم يُرِد الدنيا طرفة عين(٢).

والخلاصة: أنَّ الإنسان عليه أن يسعى في الدنيا طلبًا للرزق والعيش الرغيد والمال الوفير، ليس لأجل المال، بل ليكون المال عونًا له في الحياة على أن يعبد الله تعالى حقَّ العبادة، وأن يكون من أهل الخير وأصحاب اليد العليا، وما أجمل قول سفيان الثوري: كان المال فيما مضى يُكرَه، فأمَّا اليوم فهو تِرْسُ المؤمن(٣).

فعلى المؤمن أن يكون مُتوازِنًا بين مُتطلَّبات الدنيا ورغباته فيها وبين الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٤).

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٦١).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣٣٤). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠ هـ)، الناشر: السعادة- بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٨١).

(٤) القصص ٧٧.

١٢ صفر

أمسِكْ عليك هذا (التحذير من زلَّات اللسان)

أمرنا الله سبحانه وتعالى بالصمت إلَّا إذا كان الكلام خيرًا؛ فقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١)، وقال معاذ بن جبل- رضي الله عنه- للنبي ﷺ:"يا رسولَ اللَّهِ؛ أخبِرْني بعمَلٍ يُدخلُني الجنَّةَ، ويُباعدُني منَ النَّارِ. فقال ﷺ في آخر الحديث:" أمسِكْ عليك هذا، وأشار إلى لسانه فأعاد عليه. فقال: ثكلتْكَ أُمُّكَ، هل يكُبُّ النَّاسَ على مناخرهم في النَّار إلَّا حصائدُ ألسنتهم؟" رواه ابن ماجه والترمذي(٢).

ومعصية اللِّسان يدخل فيها الشِّرْك وهو أعظم الذُّنوب عند الله. ويدخل فيها القول على الله بلا علمٍ وهو قرين الشِّرْك. ويدخل فيها شهادة الزور التي عدلت الإشراك بالله. ويدخل فيها السِّحر والقذف. ويدخل فيها الكذب والغيبة والنميمة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال:" إنَّ الرجلَ ليتكلَّم بالكلمة ما يتبيَّن فيها، يزل بها في النَّار أبعدَ ممَّا بين المشرق والمغرب"(٣) وفي رواية أخرى له:" إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفًا في النَّار" رواه الترمذي وابن ماجه(٤).

---

(١) النساء ١١٤.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣١٤) برقم (٣٩٧٣) كتاب الفتن. باب كفِّ اللِّسان في الفتنة. الترمذي في جامعه (٥/ ١٢) برقم (٢٦١٦) أبواب الإيمان. باب ما جاء في حُرمة الصلاة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة (٨/ ٤٧٣).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠١) برقم (٦٤٧٧) كتاب الرقاق. باب حفْظ اللِّسان وليس فيه (المغرب) وقد ذكر المحقِّق أنَّه هكذا في جميع نسخ البخاري (أبعد ممَّا بين المشرق). ورواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩٠) برقم (٢٩٨٨) كتاب الزهد والرقائق. باب التكلُّم بالكلمة يهوي بها في النَّار.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٥٧) برقم (٢٣١٤) أبواب الزهد. باب فيمن تكلَّم بكلمة يُضحِكُ بها الناس. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣١٣) برقم (٣٩٧٠) كتاب الفتن. باب كفِّ اللِّسان في الفتنة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٣١٤).

لذا كان خوف السلف الصالح من آفات اللِّسان عظيمًا، فقد كان أبو بكر- رضي الله عنه- يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد[١]، وكان ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- يأخذ بلسانه وهو يقول: ويحك، قلْ خيرًا تغنمْ، أو اسكتْ عن سوءٍ تسلمْ، وإلَّا فاعلم أنَّك ستندم. فقيل له: يا ابن عبَّاس؛ لِمَ تقول هذا؟ قال: إنَّه بلغني أنَّ الإنسان ليس على شيءٍ من جسده أشدُّ حنقًا أو غيظًا منه على لسانه، إلَّا من قال به خيرًا، أو أملى به خيرًا، وكان ابن مسعود- رضي الله عنه- يحلف بالله الذي لا إله إلَّا هو ما على الأرض شيءٌ أحوج إلى طول سجنٍ من لسانٍ، وقال الحسن: اللِّسان أمير البدن، فإذا جنى على الأعضاء شيئًا جنتْ، وإذا عفَّ عفَّتْ[٢].

والإكثار من الكلام الذي لا حاجة إليه يُوجِب قساوة القلب. كما روى الترمذي من حديث ابن عمر مرفوعًا:" لا تُكثِروا الكلام بغير ذِكْر الله، فإنَّ كثرة الكلام بغير ذكْر الله قسوةٌ للقلب، وإنَّ أبعدَ النَّاس عن الله القلب القاسي"[٣].

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٨٨) برقم (١٢) باب ما جاء فيما يخاف من اللِّسان. والنسائي في السُّنن الكبرى (١٠/ ٤٠٢) برقم (١١/٨٤١) كتاب المواعظ. وصحَّحه الألباني كما في مشكاة المصابيح (٣/ ١٣٦٥). موطأ الإمام مالك، المؤلف: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، صحَّحه ورقَّمه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، عام النشر: ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م. السُّنن الكبرى، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حقَّقه وخرجَّ أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدَّم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م. مشكاة المصابيح، المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقِّق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي– بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٤٨).

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠٧) برقم (٢٤١١) أبواب الزهد. باب منه. والحديث ضعَّفه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٤١١).

وقال عمر- رضي الله عنه-: مَن كثُر كلامُه كثُر سقطُه، ومَن كثُر سقطُه كثُرت ذُنوبُه، ومَن كثُرتْ ذُنوبُه كانت النَّار أولى به[١].

وقال محمد بن عجلان: إنَّما الكلام أربعة: أن تذكر الله، وتقرأ القرآن، وتسأل عن علمٍ فتخبر به، أو تتكلَّم فيما يعنيك من أمر دنياك[٢].

فليس الكلام مأمورًا به على الإطلاق، ولا السكوت مأمورًا به على الإطلاق. بل لا بُدَّ من الكلام في الخير العاجل والآجل، والسكوت عن الشرِّ الآجل والعاجل. واللِّسان ترجمان القلب والمعبِّر عنه. وقد أمرنا باستقامة القلب واللِّسان. قال رسول الله ﷺ:" إذا أصبح ابن آدم فإنَّ الأعضاء كلَّها تُكفِّر اللِّسان، فتقول: اتقِ الله فينا، فإنَّما نحن بك، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوججتَ اعوججنا" رواه الترمذي[٣].

وآفات اللِّسان كثيرة ومتنوِّعة: فالآفة الأولى: الكلام فيما لا يعني، وفي الحديث:" مِن حُسنِ إسلام المرء ترْكُه ما لا يعنيه" رواه الترمذي[٤].

---

(١) رواه مرفوعًا الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٣٣٤) برقم (٦٥٥٧)؛ وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٧٤)، ورواه القضاعي مرفوعًا وموقوفًا على عمر في مسند الشهاب (١/ ٢٣٧)، والبيهقي موقوفًا في شُعب الإيمان (٧/ ٥٩) برقم (٤٦٤٠). المعجم الأوسط، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠ هـ)، المحقِّق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين- القاهرة. مسند الشهاب، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (المتوفى: ٤٥٤ هـ)، المحقِّق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م. شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حقَّقه وراجع نصوصه وخرَّج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م. وقد ضعَّف الألباني الحديث المرفوع كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (١٠/ ١٦٧).

(٢) يُنظَر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣٤٠).

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠٦) برقم (٢٤٠٧) أبواب الزهد. باب ما جاء في حفْظ اللِّسان. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٤٠٧).

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٥٨) برقم (٢٣١٧) أبواب الزهد. باب بدون ترجمة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٣١٧).

الآفة الثانية: الخوض في الباطل، وهو الكلام في المعاصي، والتحدُّث عنها بما يُروِّجها بين الناس، ويشيع الفاحشة بينهم. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

وقال النبي ﷺ:" لا تُؤذوا عباد الله ولا تُعيّروهم ولا تطلبوا عوراتهم، فإنَّه مَن طلبَ عورة أخيه المسلم؛ طلب الله عورته حتَّى يفضحَه في بيته" رواه أحمد[٢].

الآفة الثالثة: التكلُّم بالفحش والسَّبِّ والبذاءة والشتم، فإنَّ بعض الناس يعتاد النطق بلعن الأشخاص والأماكن والدوابِّ، فيكون النطق باللعنة أسهل الألفاظ عليه. وربما يواجه بها صديقه وصاحبه العزيز عليه.

وقد قال النبي ﷺ:" لعْنُ المؤمنِ كقتلِه" رواه البخاري ومسلم[٣]، وقال أيضًا:" ليس المؤمنُ بالطَّعَّانِ واللَّعَّان ولا الفاحش ولا البذيء" رواه الترمذي[٤].

وقد لعنتْ امرأةٌ ناقةً لها فأمر النبي ﷺ بأخْذ ما عليها وترْكها، وقال:" لا تصحبْنا ناقةٌ ملعونةٌ" رواه مسلم[٥].

الآفة الرابعة: كثرة المزاح، فإنَّ الإفراط في المزاح والمداومة عليه منهيٌّ عنهما، لأنَّه يُسقِط الوقار. ويُوجِب الضغائن والأحقاد، أمَّا المزاح اليسير النزيه فإنَّه لا بأس به؛ لأنَّ فيه انبساطًا وطيبَ نفسٍ"، وكان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلَّا حقًّا"[٦].

---

(١) النور ١٩.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٧/٨٨) برقم (٢٢٤٠٢). وصحَّحه لغيره مُحقِّقو المسند.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٦) برقم (٦١٠٥) كتاب الأدب. باب مَن كفَّر أخاه بغير تأويل فهو كما قال. ومسلم في صحيحه (١/ ١٠٤) برقم (١١٠) كتاب الإيمان. باب غلظ تحريم قتْل الإنسان نفسه، وأنَّ مَن قتلَ نفسه بشيءٍ عُذِّبَ به في النَّار، وأنَّه لا يدخل الجنَّة إلَّا نفْسٌ مُسلِمةٌ.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٥٠) برقم (١٩٧٧) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في اللعنة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٤/ ٤٧٧).

(٥) رواه صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠٤) برقم (٢٥٩٥) كتاب البر والصلة والآداب. باب النهي عن لعْنِ الدوابِّ وغيرها ولفظه:" بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة، فضجرتْ فلعنتْها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «خذوا ما عليها ودعوها، فإنَّها ملعونةٌ» قال عمران: فكأنِّي أراها الآن تمشي في الناس، ما يعرض لها أحدٌ".

(٦) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٢٢٤)، ولفظه:" جاءت أُمُّ أيمن إلى النبي ﷺ فقالت: احملْني، قال:« أحملُكِ على ولد الناقة» فقالت: يا رسول الله؛ إنَّه لا يُطيقُني ولا أريده، فقال:« لا أحملُكِ إلَّا على ولد الناقة» يعني أنَّه كان يُمازحها،

الآفة الخامسة: الاستهزاء والسُّخرية بالنَّاس وتتبُّع عثراتهم والبحث عن عوراتهم والتندُّر بذلك وانتقاصهم والضحك منهم. قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾[١]. يعني الذي يزدري الناس وينتقصهم، وقيل: الهمز بالقول واللمز بالفعل، توعَّده الله بالويل وهو كلمةُ عذابٍ، أو وادٍ في جهنَّم، نعوذ بالله من ذلك.

الآفة السادسة والسابعة من آفات اللِّسان: الغيبة والنميمة، وهما من كبائر الذُّنوب. والغيبة: ذِكْرُك أخاك حال غيبته بما يَكرَه. والنميمة: نقْلُ الحديث بين النَّاس على وجْه الإفساد، وقد شبَّه الله المغتاب بآكِل الميتة، فقال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

وأخبر النبي ﷺ" أنَّ النمَّام يُعذَّب في قبره" رواه البخاري ومسلم[٣]. وأخبر أنَّه:" لا يدخل الجنَّةَ نمَّامٌ" رواه البخاري ومسلم[٤].

والنَّمَّام يُفسِد بين الناس، ويزرع في القلوب الأحقاد والأضغان، ويهدم البيوت ويخرب الأوطان. وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾[٥].

وكان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلَّا حقًّا، والإبل كلُّها ولد النوق". الطبقات الكبرى، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، المحقِّق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٨م.

(١) الهمزة ١.

(٢) الحجرات ١٢.

(٣) كما في حديث ابن عبَّاس، قال: مرَّ النبي ﷺ بحائط من حيطان المدينة، أو مكَّة، فسمع صوت إنسانَين يُعذَّبانِ في قبورهما، فقال النبي ﷺ:« يُعذَّبانِ، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ» ثم قال: «بلى، كان أحدُهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة». رواه البخاري في صحيحه (١/ ٥٣) برقم (٢١٦) كتاب الوضوء. باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله. ومسلم في صحيحه (١/ ٢٤٠) برقم (٢٩٢) كتاب الطهارة. باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٧) برقم (٦٠٥٦) كتاب الأدب. باب ما يُكرَه من النميمة. ومسلم في صحيحه (١/ ١٠١) برقم (١٠٥) كتاب الإيمان. باب بيان غلظ تحريم النميمة. وهو عند البخاري بلفظ:" لا يدخل الجنَّة قتَّات" أي نمَّام.

(٥) القلم ١٠-١٢.



والخلاصة : قول الإمام النووي:" واعلمْ أنَّه ينبغي لكلِّ مُكلَّفٍ أنْ يحفظَ لسانَه عن جميعِ الكلام إلَّا كلامًا فيه المصلحة، ومتى استوى الكلامُ وتركُه في المصلحة؛ فالسُّنَّةُ الإمساكُ عنه؛ لأنَّه قد يَنجَرُّ الكلامُ المباحُ إلى حرامٍ ومكروهٍ، وذلك كثيرٌ في العادة، والسلامةُ لا يَعدِلُها شيءٌ" [(١)].

وعن ابن مسعود وسلمان الفارسي- رضي الله عنهما- قالا: أكثر النَّاس وقوفًا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في الباطل[(٢)].

وصدق القائل:

إنَّ السكوتَ سلامةٌ ولربما ... زرعَ الكلامُ عداوةً وضِرارًا

فإنْ ندمتَ على سُكوتِكَ مرَّةً ... فلتندمَنَّ على الكلامِ مِرارًا[(٣)]

---

(١) رياض الصالحين ط الرسالة (ص ٤٢٧). رياض الصالحين، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، المحقِّق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

(٢) ذكره ابن عبد البر عنهما كما في بهجة المجالس وأنس المجالس (ص ١١، بترقيم الشاملة آليًّا). بهجة المجالس وأنس المجالس، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ).

(٣) تُنسَبُ هذه الأبيات لأبي العتاهية. يُنظَر: شُعب الإيمان (٧/ ٩١). وهي أربعة أبياتٍ قال فيها:

إن كان يُعجبُك السُّكوتُ فإنَّه ... قد كان يُعجبُ قبلك الأخيارا

ولئن ندمتَ على سكوتك مرَّة ... فلقد ندمتَ على الكلام مرارا

إنَّ السكوت سلامةٌ ولرُبَّما ... زرع الكلامُ عداوة وضرارا

وإذا تقرَّب خاسرٌ من خاسرٍ ... زادا بذاك خسارة وتبارا

شُعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حقَّقه وراجع نصوصه وخرَّج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي– الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

١٣صفر

وكونوا عباد الله إخوانًا (الأُخوَّة في الله)

الأُخوَّة في الله هي منحةٌ قُدسيَّةٌ، ونعمةٌ إلهيَّةٌ يقذفها الله عزَّ وجلَّ في قلوب المخلصين من عباده، والأصفياء من أوليائه، والأتقياء من خلْقه، فالله تعالى يقول: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾(١)، وقال أيضًا: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" لا تحاسَدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبعْ بعضُكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم؛ لا يظلِمه، ولا يخذُله، ولا يكذِبه، ولا يحقِره، التقوى ها هنا- ويُشير إلى صدره ثلاث مرَّاتٍ-، بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ؛ دمُه ومالُه وعِرْضُه" رواه مسلم(٣).

قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله- في قوله ﷺ:" وَكونوا عِبَادَ اللهِ إِخوَانًا": ذلك أن يبتعد عن كلِّ تفكيرٍ في مساوئ إخوانه، وأن يكون دائمًا يتذكَّر محاسن إخوانه، حتَّى يألفهم ويزول ما في قلبه من الحقد(٤).

وقد نَهى النَّبيُّ ﷺ عن بعضِ ما يُسبِّبُ العَداوةَ والقطِيعةَ بيْن المسلمينَ؛ لِمَا في تباغُضِهم مِن التَّفرُّقِ، ونَهاهم عن التَّحاسُدِ، وهو تَمنِّي زَوالِ النِّعمِ عنِ الآخَرين، ونَهاهم عن التَّدابُرِ، وهو أنْ يُوَلِّي المسلِمُ أخاهُ المسلمَ ظَهْرَه ودُبُرَه؛ إمَّا حِسيًّا فلا يُجالِسُه ولا يَنظُرُ إليه، وإمَّا مَعنويًّا فلا يُظهِرُ الاهتمامَ به، والمقصودُ: نَهيُهم عن التَّقاطُعِ والتَّهاجُرِ، ثُمَّ بيَّن لهمُ المنزلةَ الَّتي يَنبغي أنْ يَكونوا عليها، وهي الأُخُوَّةُ، كَأُخُوَّةِ النَّسَبِ في الشَّفَقةِ والرَّحمةِ، والمحبَّةِ والمواساةِ، والمعاوَنةِ والنَّصيحةِ، فأمرهم أن يَأخُذوا بِأسْبابِ كلِّ ما يُوصِّلُهم لِمثْلِ الأُخُوَّةِ الحقيقيَّةِ مع صَفاءِ القلْبِ، والنَّصيحةِ بِكلِّ حالٍ.

---

(١) الأنفال ٦٣.

(٢) آل عمران ١٠٣.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٦) برقم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب. باب تحريم ظُلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعِرضه وماله.

(٤) شرح الأربعين النووية للعثيمين (ص ٣٤٨). شرح الأربعين النووية، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الثريا للنشر.

ونَهاهم عن هَجْرِ المسلِمِ وتركِه؛ زيارةً أو كلامًا، ونحو ذلك مِن أشكالِ الهِجْرانِ، فوقَ ثلاثةِ أيَّام إنْ كان الخلافُ على أمْرِ الدُّنيا.

قال ابن السماك عند موته: اللَّهُمَّ إنَّك تعلم أنِّي إذا كنتُ أعصيك كنتُ أُحِبُّ مَن يُطيعك، فاجعلْ ذلك قُربة لي إليك(١).

وقال عبد الله بن سهل: سمعتُ يحيى بن معاذ يقول: ليكُن حظُّ المؤمن منك ثلاثًا: إن لم تنفعْه فلا تضرَّه، وإن لم تفرحه فلا تغمَّه، وإن لم تمدحه فلا تذمَّه(٢).

فإذا رُزِق المرء بصاحبٍ صادقٍ فتلك نعمةٌ عُظمى من المولى عزَّ وجلَّ، وسعادة كبرى يغبطهم على ذلك الأنبياء والرسل يوم القيامة. قال الشاعر:

تمسَّكْ إن ظفرتَ بذيلِ حُرٍّ　　　فإنَّ الحُرَّ فى الدُّنيا قليلُ(٣)

لأنَّ كثيرًا من الناس اليوم أصبحتْ علاقاتهم نفعيَّة، وتآخيهم صِلات دُنيويَّة فحسب، ناسين أو مُتناسين أنَّ أعظم أركان التآخي والخلَّة ما كانت لله وبالله.

أمَّا الصداقات النفعيَّة والمصلحيَّة فهي في الدرجة الدنيا، ولا يُطلَق عليها اسم الصداقة إلَّا تجنِّيًا، وإنَّما هي علاقات نفعيَّة، ولا مجال للحديث عنها هنا، ولا وجه للمقارنة بين الأُخوَّة في الله وبين صداقة المصلحة. قال الشاعر:

وكُلُّ صديقٍ ليسَ في اللهِ وُدُّهُ　　　فإنِّي به فى وُدِّه غيرُ واثقِ(٤)

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (ص ٢٣٢) مع اختلافٍ يسيرٍ، والغزالي في إحياء علوم الدين (٢/ ١٦٠). المحتضرين، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقِّق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم- بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م. إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة- بيروت.

(٢) يُنظَر: صفة الصفوة (٢/ ٢٩٢). صفة الصفوة، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، المحقِّق: أحمد بن علي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٣) البيت لأبي إسحاق الشيرازي كما في ترجمته في وفيات الأعيان (١/ ٢٩). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، المحقِّق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر- بيروت، الطبعة: الجزء: ١- ١٩٠٠م.

(٤) ذَكَرَه المروذيُّ في أخبار الشيوخ وأخلاقهم (ص ١٩٧). أخبار الشيوخ وأخلاقهم، المؤلف: أحمد بن محمد بن الحجاج أبو بكر المَرُّوْذِيُّ (المتوفى: ٢٧٥هـ)، حقَّقه وقدَّم له وخرَّج نصوصه: عامر حسن صبري، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

فصديق المصلحة تزول صداقته مع زوالها، وكم بليَّةٍ وقعتْ بالاستهانة بخلطاء السوء وجلساء الباطل، فكانت مُجالستُهم مرضًا فتَّاكًا، حتَّى أوقعتْ بعضهم في الجحيم باعتناق عقائد زائغة، أو سلوكٍ هابطٍ مشينٍ.

وهاكَ بعض حقوق الأُخوَّة في الله:

١- الحُبُّ في الله والبُغض في الله: فالمحبَّة في الله أمرها عظيم، ولن تستكمل إيمانك إلَّا بها، فعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:" مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ" رواه أبو داود[(١)].

٢- التناصُح: يقول سبحانه وتعالى في سورة التوبة: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾[(٢)]، أولياء بعض وليسوا أعداءً، نتناصح وندُلُّ على الخير وننهى عن الشَّرِّ، لكن لا يكون هناك غِلٌّ ولا حقدٌ ولا حسدٌ، بل إخوةٌ أحبابٌ في الله.

٣- حِفْظُ اللِّسان عن إخوانك: وهذه هي الطامَّة الكُبرى التي كثيرًا ما أوقعت القتلى، وسبَّبتْ سفك الدماء، وهدَّمت الأسر، وغاب عنَّا قولُ الله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾[(٣)].

٤- صفاء القلب لإخوانك المسلمين: فيجبُ أن نُصفِّي قلوبنا من الغلِّ والحقد والحسد، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" تُفتَحُ أبوابُ الجنَّةِ يوم الاثنين ويوم الخميس، فيُغفَرُ لكلِّ عبدٍ لا يُشرِك بالله شيئًا، إلَّا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيُقال: أنظِروا هذَينِ حتَّى يصطلحا" رواه مسلم[(٤)].

٥- الزيارة في الله: فَعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:" أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا؛ غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ؛ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ" رواه مسلم[(٥)].

٦- المعونة وقضاء الحوائج: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" وَاللَّهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ"رواه مسلم[(٦)].

---

(١) رواه أبو داود في سُننه (٤/ ٢٢٠) برقم (٤٦٨١) كتاب السُّنَّة. باب الدليل على زيادة الإيمان ونُقصانه. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (١٠/ ١٨١). صحيح وضعيف سُنن أبي داود، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنَّة بالإسكندرية.

(٢) التوبة ٧١.

(٣) ق ١٨.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٧) برقم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة والآداب. باب النهْي عن الشحناء والتهاجُر.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٨) برقم (٢٥٦٧) كتاب البر والصلة والآداب. باب في فضْل الحُبِّ في الله.

(٦) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٤) برقم (٢٦٩٩) كتاب الذِّكْر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل الاجتماع على تلاوة القرآن.

٧- سَتْر معايبه، وحِفْظ سِرِّه، والقيام له بحقِّ النَّصيحة بأدبٍ وستْرٍ، والدفاع عن عِرْضه، والتجاوز عن زلَّاته، وحُسْن الخُلُق معه، وغير ذلك.

والخلاصة: أنَّ الأُخوَّة في الله من أشرف الأعمال والقُرُبات، ويكفي أنَّ المتحابِّين في الله" مِنَ السبعة الذين يُظلُّهم اللهُ في ظلِّه يوم القيامة يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه" رواه البخاري ومسلم[1]، وأنَّها ليست كلامًا ولا شعارات، وإنَّما هي أخلاق وأفعال وسلوكيَّات وحقوق وواجبات.

استكثِرَنَّ مِنَ الإخوانِ إنَّهُمُ ... خيرٌ لكانزِهِمْ كنزًا مِنَ الذَّهَبِ

كَمْ مِنْ أخٍ لكَ لوْ نابتْكَ نَائِبةٌ ... وجدتَهُ لكَ خيرًا مِنْ أخِ النَّسَبِ[2]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٣) برقم (٦٦٠) كتاب الأذان. باب مَن جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضْل المساجد. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٥) برقم (١٠٣١) كتاب الزكاة. باب فضْل إخفاء الصدقة.

(٢) لم أقف على قائلها.

١٤ صفر

وَخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ

من وصايا النبي الكريم ﷺ للصحابيَين الجليلَين أبي ذر الغفاري ومعاذ بن جبل- رضي الله عنهما- أنَّه قال:" اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ" رواه الترمذي(١).

والحُسْنُ في اللغة: هو ما كان ضدَّ القُبح، فهي صفةٌ لما حَسُنَ، فيُقال: امرأةٌ حسناء، ورجلٌ حَسَنٌ، فالحُسْنُ هو الجمال، وأمر الله- سبحانه- عباده بالقول الحَسَن فقال في سورة البقرة: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾(٢)، وبالمجمل فإنَّ أغلب أقوال العلماء في وصف وتعريف حُسْنِ الخُلُق يدور حول العطاء، والاحتمال، والعفو، وكظْم الغيظ، وبسْط الوجه، والصلة، واللُّطف، والمبرَّة، وحُسن الصُّحبة والعِشْرة، والطاعة.

قال الشيخ السعدي- رحمه الله-:" هو خُلُقٌ فاضلٌ عظيمٌ، أساسه الصبر، والحِلْم، والرغبة في مكارم الأخلاق، وآثاره العفو، والصفح عن المسيئين، وإيصال المنافع إلى الخلْق أجمعين"، وجَمَعَ الله- سبحانه- ذلك في آيةٍ واحدةٍ، فقال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾(٣)(٤).

وحُسْنُ الخُلُقِ يشمل جوانب كثيرة من حياة المسلم في أقواله وأعماله، وفي عبادته لربِّه وتعامله مع عباده. قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾(٥). وقال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾(٧).

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٥٦) برقم (١٩٨٧) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في مُعاشَرة النِّساء. وقال عقبه:" هذا حديث حسن صحيح". والحديث صحَّحه الألباني بمجموع طرقه كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣/ ٣٦٢).

(٢) البقرة ٨٣.

(٣) الأعراف ١٩٩.

(٤) لم أقف عليه في كتب الشيخ السعدي، لكن نقله عنه الحمد في كتابه سُوء الخُلُق (ص ٨٠). سُوء الخُلُق، المؤلف: محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد، الناشر: درا بن خزيمة، الطبعة: طبعة ثانية مُنقَّحة ومزيدة.

(٥) الإسراء ٥٣.

(٦) البقرة ٨٣.

(٧) فصلت ٣٤.



وعن أبي الدرداء- رضي الله عنه- قال: قال ﷺ:" مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ" رواه الترمذي(١).

قال ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-:" أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحِلْم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله وأخضع لهم عدوهم"(٢).

قال ابن القيّم- رحمه الله- في كتابه الفوائد:" جَمَعَ النبي ﷺ بين تقوى الله وحُسْن الخُلُق، لأنَّ تقوى الله تُصلِح ما بين العبد وبين ربِّه، وحُسْن الخُلُق يُصلِح ما بينه وبين خلْقه، فتقوى الله تُوجِب له محبَّة الله، وحُسْنُ الخُلُق يدعو الناس إلى محبَّته"(٣). ولا يكتمل إيمانُ عبدٍ ما لم يُوفَّق للخُلُق الحَسَن، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ:" أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ" رواه الترمذي(٤).

وحريٌّ بمَن تمسَّك بحُسْنِ الخُلُقِ أن يصل إلى مراتب العاملين العابدين، فعن عائشة- رضي الله عنهما- أنَّ النبي ﷺ قال:" إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ" رواه أبو داود(٥).

وسُئِلَ بعضُ العلماء عن علامات حُسْنِ الخُلُقِ فقال: هو أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللِّسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، بَرًّا وصولًا وقورًا، صبورًا شكورًا، رضيًّا حكيمًا، رفيقًا عفيفًا شفيقًا، لا لعَّانًا ولا سبَّابًا، ولا نمَّامًا ولا مُغتابًا، ولا عجولًا ولا حقودًا، ولا بخيلًا ولا حسودًا، بشَّاشًا هشَّاشًا، يُحِبُّ في الله، ويبغض في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله، فهذا هو حُسْنُ الخُلُقِ(٦).

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٦٢) برقم (٢٠٠٢) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في حُسْنِ الخُلُقِ. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٢).

(٢) رواه الطبري كما في تفسيره جامع البيان (٢١/ ٤٧١). جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقِّق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

(٣) الفوائد لابن القيِّم (ص ٥٤).

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٤٥٨) برقم (١١٦٢) أبواب الرضاع. باب ما جاء في حقِّ المرأة على زوجها. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٣/ ١٦٢).

(٥) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٢٥٢) برقم (٤٧٩٨) كتاب الأدب. باب في حُسْن الخُلُق. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (١٠/ ٢٩٨).

(٦) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ٧٠).

وقيل لعبد الله بن المبارك: أجمِلْ لنا حُسْنَ الخُلُق في كلمة. فقال: اتركِ الغضبَ[1]. فلا تصحبْ مَن سَاء خُلُقُه، وهو الذي لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة.

وبعضُ النَّاس يتصوَّر أنَّ حُسْنَ الخُلُقِ محصورٌ في الكلمة الطَّيِّبة والمعاملة الحسنة فقط، والحقيقة أنَّ حُسْنَ الخُلُق أوسع من ذلك فهو يعني- إضافةً إلى ذلك- التواضُع وعدم التكبُّر ولين الجانب، ورحمة الصغير واحترام الكبير، ودوام البِشْر وحُسْن المصاحبة، وسهولة الكلمة وإصلاح ذات البين، والتواضُع والصبر والحِلْم والصدْق، وغير ذلك من الأخلاق الحسنة التي حثَّ عليها الإسلام ورغَّب فيها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- وهو يتكلَّم عن منهج السلف في الأخلاق والسلوك:" يأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمُرِّ القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال"[2].

ولاكتساب الأخلاق الحسنة أسبابٌ، إذا أخَذَ العبد بها استقامتْ سيرتُه بإذن الله:

١- قوَّة الإيمان وسلامة العقيدة: فالسلوك ثمرة لما يحمله الإنسان من عقيدة، والانحراف في السلوك إنَّما هو ناتجٌ عن خللٍ في المعتقَد، ثم إنَّ العقيدة هي الإيمان و:" أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا" رواه الترمذي[3].

٢- الدُّعاء: فمَن رغبَ بالتحلِّي بمكارم الأخلاق، ورغبَ بالتخلِّي عن مساوئها؛ فلْيلجأْ إلى ربِّه، ولْيرفعْ إليه أكُفَّ الضراعة لِيرزقَه حُسْنَ الخُلُق ويصرف عنه سيِّئه.

٣- المجاهدة: والخُلُق نوعٌ من الهداية، يحصل عليه المرء بالمجاهدة الدائمة المستمرَّة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[4].

٤- أن يضع المرء نفسه موضع الآخرين؛ فلا يؤتِ النَّاس إلَّا ما يُحِبُّ أن يؤتوه إيَّاه. وهي قاعدة عظيمة في التمييز بين الأخلاق الحسنة والسَّيِّئة، أرشد إليها النبي ﷺ بقوله:" لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسِه" رواه البخاري[5].

٥- مصاحبة الأخيار وأهل الأخلاق الفاضلة.

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٦٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٨).

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٤٥٨) برقم (١١٦٢) أبواب الرضاع. باب ما جاء في حقِّ المرأة على زوجها. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٣/ ١٦٢).

(٤) العنكبوت ٦٩.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم (١٣) كتاب الإيمان. باب مِن الإيمان أن يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه.



وإنَّ لحُسْنِ الخُلُق الكثيرَ من الفضائل؛ فقد سُئِلَ رسول الله ﷺ عن أكثر شيءٍ يُدخِلُ النَّاس الجنَّة، فقال:" تَقْوَى اللهِ وحُسْنُ الخُلُقِ" رواه الترمذي[١].

وعن ابن عبَّاس- رضي الله عنه- أنَّه قال:" لحُسْنُ الخُلُقِ مِن الدِّين، وَإِنَّ حَسَنَ الخُلُق إذا أدخلهُ الله تعالى الجنَّة جعله فِي غُرَفِ النَّبِيِّين والصِّدِّيقين" [٢].

وحُسْنُ الخُلُقِ مِن أفضلِ ما يُقرِّب العبد من الله تعالى، قال رسول الله ﷺ:" أحَبُّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ أحسَنُهُمْ خُلُقًا" أخرجه الحاكم والطبراني[٣].

كما أنَّ حُسْنَ الخُلُقِ سببٌ في رفْع الدرجات في الجنَّة، وسببٌ في حُبِّ رسول الله ﷺ والقُرب منه يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ:" إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ، وأقربِكُم مِنِّي مجلسًا يومَ القيامةِ؛ أحاسنَكُم أخلاقًا" رواه الترمذي[٤].

وحُسْنُ الخُلُقِ يُحوِّلُ العدوَّ إلى صديقٍ، ويُصلِحُ ما بين الإنسان وبين النَّاس، قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾[٥].

والخلاصة: أنَّ العقيدة الصحيحة تحمل صاحبها على مكارم الأخلاق من صِدْقٍ وحِلْمٍ، وكرمٍ وشجاعةٍ، ونحو ذلك، كما أنَّها تردَعُه عن مساوئ الأخلاق من كذبٍ وشُحٍّ وطيشٍ، ونحوها.

ويُعجبُني جدًّا قولُ شاعر النيل حافظ إبراهيم:

إِنِّي لَتُطرِبُنِي الخِلَالُ كَرِيمَةً ... طَرَبَ الغَرِيبِ بِأَوبَةٍ وَتَلَاقِ

فَإِذا رُزِقْتَ خَليقَةً مَحمودَةً ... فَقَدِ اصْطَفاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ

فَالنَّاسُ هَذا حَظُّهُ مالٌ وَذَا ... عِلْمٌ وَذاكَ مَكارِمُ الأَخْلَاقِ[٦]

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٦٣) برقم (٢٠٠٤) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في حُسْنِ الخُلُقِ. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٤).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٢/ ١٤٠) برقم (٢٧١٠). الفردوس بمأثور الخطاب، المؤلف: شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخسرو، أبو شجاع الديلميُّ الهمذاني (المتوفى: ٥٠٩ هـ)، المحقِّق: السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ٢٦٨) برقم (٦٣٨٠)، من حديث أسامة بن شريك:" كُنَّا جُلُوسًا عند النبي ﷺ كأنَّما على رؤوسنا الطير ما يتكلَّم منَّا مُتكلِّمٌ، إذ جاءه أُناسٌ فقالوا: مَن أحبُّ عباد الله إلى الله؟ قال: أحسنُهم خُلُقًا". وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (ط مقبل) (٤/ ٥٥٧). والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٧٩٤).

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٧٠) برقم (٢٠١٨) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في معالي الأخلاق. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ١٨).

(٥) فصلت ٣٤.

(٦) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٣/ ٢٥٨، بترقيم الشاملة آليًّا).

١٥ صفر

الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ

يقول رَسُولُ اللهِ ﷺ:" الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كذا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ" رواه مسلم(١).

هذا الحديث من جوامع الكلم التي أوتيها الرسول ﷺ، وهو نصيحة غالية ودعوة صريحة للأُمَّة، أفرادًا وجماعات أن يتملَّكوا أسباب القوَّة التي يُحِبُّها الله ورسوله، القوَّة في كلِّ شيءٍ مادِّيَّة ومعنويَّة، وفي جميع معانيها المحبوبة لكلِّ إنسانٍ، والله سبحانه وتعالى لا يُحِبُّ للمؤمنين أن يكونوا في الجانب الضعيف، ولا أن يكونوا من المتقاعسين الذين يضعفون عن مجابهة التحدِّيات أو يجبنون عن مقاومة الأعداء.

قال الإمام النووي- رحمه الله-: تُطلَقُ القوَّة على القوَّة في الدين والتقوى والعبادة وما إلى ذلك من المعاني التي تعود إلى دين الإنسان وسلامة اعتقاده وما أشبه ذلك(٢).

أمَّا المؤمن الضعيف فهو الذي عنده فتور، وهو الذي عنده تقصير، فالمؤمن القوي بهذا الاعتبار خير، وهذه قضية محسومة لا إشكال فيها، أنَّ الإنسان القوي في دينه، التقيَّ لله أفضل من الإنسان المقصِّر، وفي كلٍّ خيرٌ؛ لأنَّ المسلم لا يخلو من معروف وطاعة وصلاح، وإن حصل منه بعض التقصير والتواني.

وذَكَرَ بعضُ أهل العلم أنَّ المؤمن قويٌّ في بدنه وفي عمله، حتَّى في عمله الدنيوي إذا عمل عملًا أتقنه، وفي صبره وجَلَده، وكذلك أيضًا في دينه، فهو خيرٌ من المؤمن الضعيف الذي يقِلُّ صبرُه، ويقِلُّ تحمُّلُه، وهو ضعيفٌ لا بلاء فيه ولا غِناء، ولا كبير جدوى في دفْعٍ أو بذْلٍ وما إلى ذلك، وفي كلٍّ خيرٌ؛ لأنَّ المؤمن وإن كان ضعيفًا في بدنه أو عاجزًا؛ فإنَّه لا يخلو من خيرٍ، وهذا أقرب.

لذا أثنى الله على الصحابة لاتِّصافهم بهذه القوَّة المحمودة؛ فقال سبحانه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾(٣)، وقد أمر بها الله عزَّ وجلَّ أنبياءه وعباده،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٢) برقم (٢٦٦٤) كتاب القَدَر. باب في الأمْر بالقوَّة وترْك العجز.

(٢) نقلًا عن موقع أ.د خالد بن عثمان السبت. https://khaledalsabt.com/explanations/1319..

(٣) الفتح ٢٩.

لأنَّه يُحِبُّها ويرضاها، فقال تعالى: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[١]، قال ابن كثير- رحمه الله-: أي بجدٍّ وحرصٍ واجتهادٍ، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[٢]، وقال أيضًا: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[٣].

وقال أيضًا: ﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾[٤].

فالجلَد على الطاعة، والصبر على ذلك كلِّه من القوَّة التي يُحِبُّها ربُّنا، وأمَّا القعود والكسل والخور فهو سفول وانحطاط في مرتبة العبد، ولهذا قال النبي ﷺ:" الناس معادن كمعادِنِ الذَّهبِ والفِضَّةِ، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا" رواه البخاري ومسلم[٥].

قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-: يقول ﷺ: احرصْ على ما ينفعُك؛ هذه وصيةٌ من الرسول ﷺ لأُمَّته، وهي وصية جامعة مانعة يعني اجتهد في تحصيله ومباشرته، وضد الذي ينفع الذي فيه ضرر، وما لا نفع فيه ولا ضرر، وذلك لأنَّ الأفعال تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم ينفع الإنسان، وقسم يضرُّه، وقسم لا ينفعُ ولا يضرُّ، فالإنسان العاقل الذي يقبل وصية النبي ﷺ هو الذي يحرص على ما ينفعه، وما أكثر الذين يُضيِّعون أوقاتهم اليوم في غير فائدة، بل في مضرَّة على أنفسهم وعلى دينهم[٦].

---

(١) مريم ١٢.

(٢) الأعراف ١٤٥.

(٣) الأنفال ٦٠.

(٤) الكهف ٩٤ – ٩٥.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٤٩) برقم ٣٣٨٣) كتاب أحاديث الأنبياء. باب قول الله تعالى: {لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين} يوسف: ٧. وقد رواه في عددٍ من المواضع؛ كلُّها ليس فيها:" كمعادن الذَّهب والفِضَّة". وكذا رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٥٨) برقم (٢٥٢٦) كتاب الفضائل. باب خيار النَّاس.

(٦) شرح رياض الصالحين (٢/ ٧٨).



ألا في سبيلِ المجدِ ما أنا فاعلٌ عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
تُعَدُّ ذنوبي عندَ قومٍ كثيرةً ولا ذنبَ لي إلَّا العُلا والفضائلُ
وقد سارَ ذكري في البلادِ فمَن لهم بإخفاءِ شمسٍ ضوءُها مُتكاملُ[١]

فالإسلام يدعو إلى تحقيق القوَّة العقائديَّة والقوة العلميَّة والاجتماعيَّة والأخلاقيَّة والعسكريَّة والاقتصاديَّة وفي كلِّ المجالات، فالنبي ﷺ يدعو إلى العمل المنتِج والتفكير الصحيح، والوجهة التي ينبغي أن يتوجَّهها المؤمن في الحالات كلِّها هي: احرصْ على ما ينفعُك، وهذه لفظة عامَّة بأن يوجد عند الإنسان دافعٌ قويٌّ، وهذا هو الحرْص على ما ينفعه، وهذه الصيغة للعموم، ما ينفعه في أمْر آخرته، وما ينفعه في أمْر دنياه، أمَّا الدنيا فإنه يأخذ منها في حدود ما أباح الله من غير أن يشغله ذلك عن طاعته ومرضاته.

ولهذا قال النبي ﷺ:" أيُّها الناس؛ اتَّقوا الله، وأجمِلوا في الطلب، فإنَّ نفسًا لن تموت حتَّى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتَّقوا الله وأجمِلوا في الطلب" رواه ابن ماجه[٢].

فمن أين تأتي القوَّة إذًا؟ تأتي من الإيمان العميق والتمسُّك بالإسلام، تأتي القوَّة من قول الحقِّ والجهر به والأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأتي من الأخلاق العالية؛ فالصبر قوَّة، والرحمة قوَّة لأنَّها لا تكون إلَّا من ذوي النفوس الكبيرة، والعدل قوَّة؛ لأنَّ العادل لا يخشى بأس المتكبِّرين، ولا يرجو نفعًا من المظلومين، والتواضع قوَّة، والحلم قوَّة، وكلُّ هذه القوى كانت مُتمثِّلةً في شخص الرسول ﷺ فهو أشجع الناس وأكرم الناس وأحلم الناس وأعدل الناس. كما تأتي القوَّة من البُعد عن سفاسف الأمور، والبُعد عن الحقد والصراع من أجل المناصب.

والخلاصة: أنَّ المؤمن مُطالَبٌ ببذْل كلِّ الأسباب لتحقيق القوَّة؛ ولأنَّ الأصل في المؤمن أن يكون عزيزًا لا يذلُّ نفسه لأحدٍ، وإنَّما يكون دائمًا عزيزًا بربِّه وبإيمانه وعقيدته، ويستسهل كلَّ صعبٍ من أجل تحقيق عزَّته ورفعة دينه.

فمَن تكُنِ العلياءُ هِمَّةَ نفسِهِ فكلُّ الذي يلقاهُ فيها مُحبَّبُ[٣]

---

(١) يُنظَر: الحماسة المغربيَّة (١/ ٧٦٦). (الحماسة المغربيَّة) مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، المؤلف: أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرَّاوي التادلي (المتوفى: ٦٠٩هـ)، المحقِّق: محمد رضوان الداية، الناشر: دار الفكر المعاصر- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩١م.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ٧٢٥) برقم (٢١٤٤) كتاب التجارات. باب الاقتصاد في طلب المعيشة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (٥/ ١٤٤).

(٣) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٧/ ٣٣٩، بترقيم الشاملة آليًّا).



١٦ صفر

إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ

إنَّ هذا الجزء من الآية الكريمة يُعَدُّ قاعدة جليلة يُؤصِّل لها القرآن، وجاءت أدلَّة السُّنَّة بعد ذلك مُؤيِّدة ومُعضِّدة لهذه القاعدة، وقد جاءت ضمن قصَّة موسى- عليه السلام- مع صاحب مدين في سورة القصص، والذي كان عاجزًا عن طلب الماء فخرجت ابنتاه للسُّقيا، بيدَ أنَّهما تأخَّرتا انتظارًا لصدور النَّاس عن البئر، إلَّا أنَّ مروءة موسى- عليه السلام- وشهامته حملته على أن يُبادر- من غير أن ينتظر سؤالهما- بقضاء حاجتهما، والسَّقي لهما، فأعجبَ هذا الفعلُ الفتاتَينِ، فذكرتاه لوالدهما المقعَد عن العمل، فأرسل في طلبه، فلمَّا جاء وحدَّثه بخبره، قالتْ له إحداهما- وهي العالِمة بعجز والدها عن القيام بمهام الرجال-: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[1]، فقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تعليلٌ لطلبها، فالقوَّة في العمل، والأمانة في أدائه على الوجه المطلوب، وتنصيص هذه الفتاة على هاتَينِ الصفتَينِ دليلٌ على وفور عقلها ورجحان تفكيرها.

قال الشيخ السعدي في تفسير آية: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: إنَّ موسى أولى مَن استُؤجِر، فإنَّه جمع القوَّة والأمانة، وخيرُ أجيرٍ استُؤجِر مَن جَمَعَهما، أي: القوَّة والقدرة على ما استُؤجِر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كلِّ مَن يتولَّى للإنسان عملًا بإجارة أو غيرها، فإنَّ الخلل لا يكون إلَّا بفقْدهما أو فقْد إحداهما، وأمَّا باجتماعهما فإنَّ العمل يتمُّ ويكمل، وإنَّما قالت ذلك لأنَّها شاهدتْ من قوَّة موسى عند السَّقي لهما ونشاطه؛ ما عرفتْ به قوَّته، وشاهدتْ مِن أمانته وديانته، وأنَّه رحمهما في حالة لا يُرجى نفعُهما، وإنَّما قصد به وجه الله تعالى[2].

ومَن تأمَّل القرآن الكريم يجد تلازمًا ظاهرًا بين صفتَي (القوَّة والأمانة) في عدَّة مواضع، منها:

١- ما وصف الله به جبريل- عليه السلام- في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[3]، فقد وصفه الله سبحانه بعدَّة صفات، منها القوَّة والأمانة.

---

(١) القصص ٢٦.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٦١٤).

(٣) التكوير ١٩- ٢١.

٢- قول يوسف- عليه السلام- لملِكِ مصر: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[١]، أي: حفيظٌ للذي أتولَّاه، فلا يضيع منه شيءٌ في غير محلِّه، وضابطٌ للداخل والخارج، عليمٌ بكيفيَّة التدبير والإعطاء والمنْع، والتصرُّف في جميع أنواع التصرُّفات، وليس ذلك حرصًا من يوسف على الولاية، وإنَّما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحِفْظ ما لم يكونوا يعرفونه، وذلك لأنَّ الوضع الاقتصادي في مصر آنذاك يقتضي مبادرة في ضبْط إدارة أموالها، خصوصًا وقد كانت مُقبِلةً- بحسب الرؤيا- على سنين عجاف مُجدِبات، تحتاج إلى حِكمة وتعقُّل في التصرُّف.

٣- ما جاء في قصَّة سليمان- عليه السلام-، وهو يَعرض على مَن كان عنده أمْرَ إحضار عرْش بلقيس ملكة سبأ ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مُعلِّقًا على هذه المواضع الثلاثة: وينبغي أن يُعرَف الأصلحُ في كلِّ منصبٍ، فإنَّ الولاية لها ركنان: القوَّة والأمانة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[٣]، والقوَّة في كلِّ ولايةٍ بحسبها، والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألَّا يشتري بآياته ثمنًا قليلًا، وترْكِ خشية الناس، وهذه الخصال الثلاث التي اتَّخذها الله على كلِّ مَن حَكم على النَّاس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾[٤]. واجتماع القوَّة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يقول:" اللَّهُمَّ أشكو إليك جَلَدَ الفاجرِ وعَجْزَ الثِّقة"، فالواجب في كلِّ ولايةٍ الأصلحُ بحسبها، فإذا تعيَّن رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوةً، قُدِّم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلُّهما ضررًا فيها[٥].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: بينما النبي ﷺ في مجلسٍ يُحدِّث القوم؛ جاءه أعرابيٌّ فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدِّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكَرِهَ ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتَّى إذا قضى حديثه قال: أين السائل عن الساعة؟ قال:

---

(١) يوسف ٥٥.

(٢) النمل ٣٩.

(٣) القصص ٢٦.

(٤) المائدة ٤٤.

(٥) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٥٣) بتصرُّف.

ها أنا يا رسول الله، قال: إذا ضُيّعتِ الأمانةُ فانتظرِ الساعةَ، قال: كيف إضاعتُها؟ قال: إذا وسدَ الأمرُ إلى غير أهله؛ فانتظرِ الساعةَ[١].

وحقًّا صِرْنا في زمنٍ يتولَّى فيه الأمرَ غيرُ أهلِهِ من أصحاب الكفاءات، وصدق القائل:

خنافسُ الأرضِ تجري في أعِنَّتِها *** وسابحُ الخيلِ مربوطٌ إلى الوتدِ

وأكرمُ الأُسْدِ محبوسٌ ومُضطَهدٌ *** وأحقرُ الدودِ يسعى غيرَ مُضطَهدِ

وأتفهُ الناسِ يقضي في مصالحِهمْ *** حُكمَ الرويبضةِ المذكورِ في السَّنَدِ

فكمْ شجاعٍ أضاعَ الناسُ هيبتَهُ *** وكمْ جبانٍ مُهابٍ هيبةَ الأسَدِ

وكمْ فصيحٍ أماتَ الجهلُ حُجَّتَهُ *** وكمْ صفيقٍ لهُ الأسماعُ في رَغَدِ

وكمْ كريمٍ غدا في غير موضعِهِ *** وكمْ وضيعٍ غدا في أرفعِ الجُدَدِ

دارَ الزمانُ على الإنسانِ وانقلبَتْ *** كلُّ الموازينِ واختلَّتْ بمُستنَدِ[٢]

إنَّه لمن الظلم الشديد أن يلي الأمورَ مَن لا يُحسِنُها، ومن هو غيرُ أهلٍ لها، وقد كان العرب يضربون لذلك المثل فيقولون:" أعطِ القوسَ باريها"، وأنشدَ شاعرُهم يقول:

يا باريَ القوسِ بريًا ليسَ يُحسِنُهُ *** لا تَظلمِ القوسَ أعطِ القوسَ باريها[٣]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- في مجموع الفتاوى: أمَّا أداء الأمانات ففيه نوعان؛ أحدهما الولايات، وهو سبب نزول آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[٤]، فإنَّ النبي ﷺ لما فتح مكَّة، وتسلَّم مفاتيح الكعبة من بنى شيبة، طلبها منه العبَّاس، ليجمع له بين سقاية الحاجّ وسدانة البيت. فأنزل الله هذه الآية، فدفع مفاتيح الكعبة إلى بنى شيبة، فيجب على وليّ الأمر أن يُولِّي على كلِّ عملٍ من أعمال المسلمين أصلحَ مَن يجدُه لذلك العمل[٥].

والخُلاصة: أنَّ الإسلام يضع كلَّ شخصٍ في مكان يناسبه، وينفع من خلاله النَّاس، ويُقدِّم أفضل ما لديه في ذلك المجال ويُبدِع، ولذلك وظَّف النبي ﷺ بلالًا في الأذان لنداوة صوته، ووظَّف مُعاذًا ليكون مُعلِّمًا، ووظَّف خالدًا ليكون قائدًا حربيًّا، وهكذا كان يضع كُلًّا في مكانه ومجاله، لذلك سادوا وفتحوا أمصار الدنيا وتحوَّلوا من رعاةٍ للغنم إلى قادةٍ للأُمم.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢١) برقم (٥٩) كتاب العلم. باب مُن سُئِلَ علمًا وهو مشتغِلٌ بحديثه فأتمَّ الحديث ثم أجاب السائل.

(٢) نُسِبَتْ للشاعر جعفر عبَّاس. ولم أقف على كتابه أو ديوانه.

(٣) التمثيل والمحاضرة (ص ٢٩٣). التمثيل والمحاضرة، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ) المحقِّق: عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: الدار العربية للكتاب، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

(٤) النساء ٥٨.

(٥) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٤٦).

١٧ صفر

الجليس الصالح والجليس السوء

إنَّ الإنسان اجتماعيٌّ بطبعه، قد فُطِر على حُبِّ الاستئناس ببني جنسه، وتكوينِ صداقات مع بعضهم؛ ولذا نجد من الشرع الشريف إرشادًا إلى أُسس اختيار الأصحاب وتكوين الصداقات، ولما كان الصَّديقُ يتشبَّه بصديقه، ويتشرَّب من صفاته؛ شدَّد الشرعُ على ضرورة الفحص والنظر قبل مصاحبته وطول مجالسته؛ فقال رسول الله ﷺ:" الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ" رواه أبو داود والترمذي(١).

وينبغي فيمَن تصحبُه أن تكون فيه خمسُ خصالٍ: أن يكون عاقلًا، حَسن الخُلُق، غير فاسقٍ، ولا مبتدعٍ، ولا حريصٍ على الدنيا.

ومثلُ الأخوَينِ والأصحاب مثل اليدَينِ تغسل إحداهما الأخرى، فهما يتعاونان في إصلاح بعضِهما، وكذلك يتشاركان في السرَّاء والضرَّاء، وكلٌّ منهما للآخَرِ مُعينٌ ومُساعِدٌ، يُعينه في سير الدنيا إلى الآخرة.

وقد رفعَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذِكْرَ الكلبِ برفقته للصالحين فقال تعالى:﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾(٢).

أنتَ في النـَّاسِ تُقاسُ   بمنِ اخترتَ خليلَا

فاصحبِ الأخيارَ تعلو   وتَنَلْ ذِكرًا جميلَا(٣)

وقد أخرج الإمامان البخاري ومسلم في صحِيحَيْهما أنَّ رسول الله ﷺ قال:" إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ؛ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"(٤).

وقد حذَّر الله سبحانه من اجتماع الأصدقاء على الشرور والآثام والإفساد في الدنيا، وجَعَلَ عاقبةَ ذلك انقلابَ صداقتِهم عداوةً يوم القيامة، فلا تدومُ إلَّا صداقةُ الخير والعمل الصالح ؛ قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٥).

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٢٥٩) برقم (٤٨٣٣) كتاب الأدب. باب مَن يُؤمَر أن يُجالس. والترمذي (٤/ ٥٨٩) في جامعه برقم (٢٣٧٨) باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٣٧٨).

(٢) الكهف ٢٢.

(٣) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٥/ ٥٥٣). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ)، المحقِّق: إحسان عبَّاس، الناشر: دار صادر- بيروت- لبنان ص. ب ١٠، الطبعة: الجزء: ٥- الطبعة: ١، ١٩٩٧م.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٩٦) برقم (٥٥٣٤) كتاب الذبائح والصيد. باب المِسك. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٦) برقم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة والآداب. باب استحباب مُجالَسة الصالحين، ومُجانَبة قرناء السوء.

(٥) الزخرف ٦٧.



فالصداقة الحقيقية هي التي يكون أساسُها المحبَّةَ الخالصةَ لوجه الله تعالى، لذا عظَّم الشرعُ أجرَها، وجعل جزاءها محبَّةَ الله والاستظلال بظلِّه يوم القيامة؛ فقال رسولُ الله ﷺ:"سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، وذَكَرَ منهم: وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْه" رواه البخاري ومسلم(١).

وإذا وجد الإنسانُ صاحِبًا صالحًا وجَبَ عليه أن يتمسَّك به، وأن يغُضَّ الطرفَ عن عيوبه، كما قال عليٌّ- رضي الله عنه-: عليكم بالإخوانِ؛ فإنَّهم عُدَّةٌ في الدنيا والآخرة، ألَا تسمعُ قولَ أهلِ النَّارِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾(٢).

ولا يوجدُ إنسانٌ كاملٌ لا عيبَ فيه، فلا شكَّ أنَّ لكلِّ إنسانٍ عيبًا، وفي كلِّ مخلوقٍ نقصًا، من أولئك أيضًا مَن اخترتهم للصُّحبة، واصطفيتهم للرفقة ولكن:

إنْ تجدْ عيبًا فسُدَّ الخللا   فجلَّ مَنْ لا عيبَ فيه وعلا(٣)

إنَّ لصاحب السوء أسوأَ الأثر على صاحبه، لأنَّه يشدُّه شدًّا إلى كلِّ رذيلةٍ وفسادٍ، فقد كان المشركون إذا أراد أحدُهم الدخولَ في الإسلام، أو حدَّث نفسه بذلك ثبَّطه أقرانه، وعادوه، وأثاروا حمية الجاهلية في نفسه، بتعييره بمخالفة الآباء والأجداد، وقد كان ذلك سببًا في وفاة أبي طالب على مِلَّة الكُفْر، فقد روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحَيْهما أنَّ الرسول ﷺ دخل على عمِّه لما حضرتْه الوفاة، فقال: أيْ عمِّ؛ قل: لا إله إلَّا الله، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب؛ ترغبُ عن مِلَّة عبد المطلِّب؟ فلم يزالا يُكلِّمانِه، حتَّى قال آخرَ شيءٍ كلَّمهم به: على مِلَّة عبد المطلِّب(٤).

قال تعالى:﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴾(٥).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١١١) برقم (١٤٢٣) كتاب الزكاة. باب الصدقة باليمين. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٥) برقم (١٠٣١) كتاب الزكاة. باب فضْل إخفاء الصدقة.

(٢) الشعراء ١٠٠- ١٠١.

(٣) ملحة الإعراب (ص ٨٧). ملحة الإعراب، المؤلف: القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري (المتوفى: ٥١٦هـ)، الناشر: دار السلام- القاهرة/ مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٥٢) برقم (٣٨٨٤) كتاب مناقب الأنصار. باب قصَّة أبي طالبٍ. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٤) برقم (٢٤) كتاب الإيمان. باب أوَّل الإيمان قول لا إله إلَّا الله.

(٥) الفرقان ٢٧-٢٩.

قال الشيخ السعدي: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ وهو الشيطان الإنسي أو الجني ﴿خَلِيلٗا﴾ أي: حبيبًا مُصافيًا، عاديتُ أنصحَ النَّاسِ لي، وأبرَّهم بي، وأرفقهم بي، وواليتُ أعدى عدوٍّ لي، الذي لم تُفِدْني ولايتُه إلَّا الشقاء والخسار والخزي والبوار ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ حيث زيَّن له ما هو عليه من الضلال بخدعه وتسويله ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ يُزيِّن له الباطل، ويُقبِّح له الحقَّ، ويَعِدُه الأماني، ثم يتخلَّى عنه ويتبرَّأ منه، كما قال لجميع أتباعه حين قُضي الأمر، وفرغ اللهُ من حساب الخلْقِ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[(١)]، فلْينظرِ العبدُ لنفسه وقت الإمكان، ولْيتدارك الممكن قبل أن لا يُمكن، ولْيوالِ مَن ولايتُه فيها سعادتُه، ولْيُعادِ مَن تنفعُه عداوتُه، وتضرُّه صداقتُه[(٢)].

يقول عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يعِظُ رجُلًا:" لا تتكلَّمْ فيما لا يعنيك، واعتزلْ عدوَّك، واحذرْ صديقك إلَّا الأمين، ولا أمينَ إلَّا مَن يخشى اللهَ عزَّ وجلَّ ويطيعُه، ولا تمشِ مع الفاجر فيُعلِّمَكَ مِن فجوره، ولا تُطلعْه على سِرِّكَ، ولا تشاورْ في أمرِك إلَّا الذين يخشون الله سبحانه"[(٣)].

ولقد حذَّرنا الله سبحانه وتعالى مِن مُجالَسة أهل السُّوء، ونهانا عن الجلوس في مجالسهم التي تُنتهَك فيها الحُرُمات، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٤)].

قال الزهري: وهل يُنتفَعُ من السَّيِّئ الخُلُقِ بشيءٍ؟![(٥)] وقال مالك بن دينار: إنَّك إن تنقلِ الأحجار مع الأبرار؛ خيرٌ لك من أن تأكل الخبيص مع الفُجَّار. وأنشد:

---

(١) إبراهيم ٢٢.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٨٢).

(٣) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (ص ٣٠٢)، والخطابي في العزلة (ص ٤٨). مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، المؤلف: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧ هـ)، تقديم وتحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري، الناشر: دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٩ م. العزلة، المؤلف: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨ هـ)، الناشر: المطبعة السلفية– القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩ هـ.

(٤) الأنعام ٦٨.

(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في إتحاف المهرة (١٩/ ٤٨٧). إتحاف المهرة بالفوائد المبتكَرة من أطراف العشرة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق: مركز خدمة السُّنَّة والسيرة، بإشراف د زهير بن ناصر الناصر (راجعه ووحَّد منهج التعليق والإخراج)، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (بالمدينة)- ومركز خدمة السُّنَّة والسِّيرة النَّبويَّة (بالمدينة)، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.



وصاحبْ خيارَ الناسِ تنجُ مُسلِمًا وصاحبْ شرارَ النَّاسِ يومًا فتندم[١]

وقال وهب بن منبه: الأحمقُ كالثوب الخلِق، إن رفأتَه من جانبٍ انخرق من جانبٍ آخر، مثل الفخَّار المكسور لا يرقع ولا يشعب ولا يُعاد طينًا، فهذا مثلُ الأحمق: إن صحبتَه عناك، وإن اعتزلتَه شتمك، وإن أعطاك منَّ عليك، وإن أسرَّ إليك اتَّهمك، وإن أسررتَ إليه خانَك، وإن كان فوقك حقرك، وإن كان دونك غمزك[٢].

والخلاصة: أن يحرص المسلم على أن يصحب الأخيار، وأن يكون معهم، فإنَّ في صُحبتهم نجاةً وتوفيقًا، وفي البُعد عن صُحبة السوء سلامةٌ للإنسان من سوء الحال وانغماس الإنسان في الفساد، وقد قال مالك بن دينار: كلُّ جليسٍ لا تستفيد منه خيرًا؛ فاجتنبْه[٣].

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في إتحاف المهرة (١٩/ ٣٩٢)؛ تفسير القرطبي (١٣/ ٢٧).

(٢) ذكره ابن حبَّان في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ١٢٢). روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، المؤلف: محمد بن حبَّان بن أحمد بن حبَّان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، المحقِّق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت.

(٣) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (ص ٤٩).

١٨ صفر

اقْرَأْ وَارْتَقِ

القرآنُ هو كلامُ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهو خيرُ الكلامِ وأفضلُه، وحامِلُه في صَدرِه خيرُ النَّاسِ وأفضلُهم في الدُّنيا والآخِرَة، وفي حديثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو- رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا" رواه أبو داود[(١)]، حيث يقول النبي ﷺ: "يُقالُ" أي: معَ دُخولِ الجَنَّةِ "لصاحِبِ القُرآنِ"، وهو القارِئُ للقرآنِ، العامِلُ بما فيه، المِلازِمُ له تِلاوةً وحِفظًا؛ فالناس تتفاوتُ مكانتُهم في الجَنَّةِ بحَسَبِ تَفاوُتِهم في حِفظِه والعملِ بما فيه وتَدبُّره؛ ولذلك يُقالُ له: "اقْرَأْ- القرآن- وارْتَقِ" في دَرجاتِ الجَنَّةِ، "ورَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدُّنيا" بقِراءتِه بتَأنٍّ وطُمَأنينةٍ مُجوَّدًا؛ فالجَنَّةُ دارُ جزاءٍ لا تَكْليفٍ، فهي قِراءةُ مُتْعةٍ؛ "فإنَّ مَنْزِلَك عِنْدَ آخرِ آيةٍ تَقْرَؤُها".

فالقرآن شرفٌ ورِفعةٌ لأصحابه في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾[(٢)]. وهكذا ستجد أنَّ الربط بالقرآن في كلِّ شيءٍ، فأعظمُ وأجلُّ وأكبرُ مُهمَّةٍ في الإسلام في أعظم فريضة من فرائضه بعد التوحيد وهي الصلاة؛ جعل التقدُّم فيها والإمامة لها مُرتبِطٌ استحقاقُها بكتاب الله عزَّ وجلَّ:" يؤمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواءً فأعلمهم بسُنَّة رسول الله ﷺ، فإن كانوا في السُّنَّة سواءً فأقدمُهم هجرةً، فإن كانوا في الهجرة سواءً فأكبرُهم سِنًّا" رواه مسلم[(٣)].

انظر المراتب كيف تكون؟ والمقاييس كيف تُؤصَّل؟ كما جاءت في سُنَّة النبي ﷺ، ومن هنا قال أنس بن مالك- رضي الله عنه-:" كان الرجلُ منَّا إذا حفظ البقرة وآل عمران جدَّ في أعيُننا" رواه أحمد[(٤)]. أي عظُمتْ منزلتُه، وارتفعتْ مكانتُه، وصار يُشارُ إليه بالبنان، وينظر إليه الناس نظرة التقدير والاحترام.

---

(١) رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٧٣) برقم (١٤٦٤) باب تفريع أبواب الوتر. باب استحباب الترتيل في القراءة. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (٣/ ٤٦٤).

(٢) الزخرف ٤٤.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٤٦٥) برقم (٦٧٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب مَن أحقُّ بالإمامة.

(٤) رواه أحمد في مسنده (١٩/ ٢٤٧) برقم (١٢٢١٥).



ومِن هؤلاء الذين رفع القرآنُ شأنَهم رجلٌ هو أحد أعلام التابعين، كان مُشرِكًا كافرًا من بلادِ فارس، ثم وقع أسيرًا في إحدى معارك الإسلام زمن الصحابة- رضي الله عنهم- فأسلم وتعلّق قلبُه بالقرآن، يحكي عن نفسه فيقول:" وقعتُ أنا ونفرٌ من قومي أسارى في أيدي المجاهدين، ثم ما لبثنا أن غدونا مملُوكَين لطائفةٍ من المسلمين في البصرة، فلم يمضِ علينا وقتٌ طويلٌ حتَّى آمنَّا بالله وتعلَّقنا بحِفْظ كتاب الله، وكان منَّا مَن يُؤدِّي الضرائب لمالكيه، ومنَّا من يقوم على خدمتهم، وكنتُ واحدًا من هؤلاء، فكُنَّا نختم القرآن كلَّ ليلةٍ مرَّةً، فشقَّ ذلك علينا، فجعلنا نختمُه مرَّةً كلَّ ليلتين، فشقَّ ذلك علينا، فجعلنا نختمُه كلَّ ثلاثٍ، فشقَّ علينا لما كُنَّا نعانيه من جهدٍ في النهار وسهرٍ في الليل، فلقينا بعض أصحاب الرسول ﷺ، وشكونا لهم ما نكابدُه من السهر وقراءة كتاب الله، مع قيامنا بخدمة موالينا، فقالوا لنا: اختموه كلَّ جمعةٍ مرَّةً، فأخذْنا بما أرشدونا إليه، فجعلنا نقرأ القرآن طرفًا من الليل وننام طرفًا، فلم يشقَّ ذلك علينا. وآلَ أمرُ هذا التابعي إلى امرأة من بني تميم، وكانت سيدة فاضلة مؤمنة، فكانت لا تشقُّ عليه في الخدمة، حيث كان يخدمها بعض النهار ويرتاح في بعضه الآخر، فتعلَّمَ- مع حِفْظ القرآن- القراءة والكتابة، وطلب العلم، وعلى رأسه- بعد القرآن- حديث رسول الله ﷺ، ولما ذهب في أحد أيام الجُمُع لصلاة الجمعة، خرجتْ معه وقالتْ أمام الناس: اشهدوا يا معشر المسلمين، أنِّي أعتقتُ غلامي هذا؛ رغبةً في ثواب الله، وطمعًا بعفوه، وليس لأحدٍ عليه من سبيلٍ إلَّا سبيل المعروف، ثم نظرتْ إليه وقالتْ: اللَّهُمَّ إنِّي أدَّخِرهُ عندك ليومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون.

فمَن هو هذا الإمام الذي قال عن نفسه: تعلَّمتُ الكتابة والقرآن فما شعُرَ بي أهلي، ولا رُئِيَ في ثوبي مداد قط؟ إنَّه أبو العالية رفيع بن مهران، الإمام المقرئ الحافظ المفسِّر، أحد أعلام التابعين، أدرك زمن النبي ﷺ وأسلم في خلافة أبي بكر الصِّدِّيق- رضي الله عنه-، ودخل عليه، وسمع مِن عددٍ من الصحابة منهم: عمر بن الخطَّاب ، وعلي بن أبي طالب، وأُبيُّ بن كعب، وأبو ذر الغفاري، وعبد الله بن مسعود، وابن عبَّاس، وغيرهم كثير- رضي الله عنهم جميعًا-، وقرأ القرآن على أُبيِّ بن كعب، وابن عبَّاس، وعمر بن الخطَّاب- رضي الله عنهم-، فقد رُوي عنه أنَّه قال: قرأتُ القرآن على عمر- رضي الله عنه- ثلاث مرَّاتٍ.

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ:" الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران" متفق عليه[1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٦٦) برقم (٤٩٣٧) كتاب تفسير القرآن. باب {يوم يُنفَخُ في الصور فتأتون أفواجًا} النبأ: ١٨. أي زمرًا. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٤٩) برقم (٧٩٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب فضْل الماهر في القرآن والذي يتتعتع فيه.

قال الشيخ ابن العثيمين- رحمه الله-: ففيه أنَّ النبي ﷺ أخبر أنَّ الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، الماهر الذي يُجيد القرآن ويُتقنه؛ هذا مع السفرة الكرام البررة، وهؤلاء السفرة الكرام البررة هم الملائكة كما قال تعالى: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾[1]، فالماهر مع الملائكة، وأمَّا الذي يتتعتع فيه- يتهجَّاه وهو عليه شاقٌّ- فله أجران: الأوَّل للتلاوة، والثاني للتعب والمشقَّة، ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة:" أجرُكِ على قدْرِ نَصَبِكِ" رواه البخاري ومسلم[2]، أي على قدر تعبك، فالذي يتتعتع في القرآن ويشقُّ عليه؛ له أجران: أجر التلاوة وأجر قراءة القرآن، لكن الأوَّل أفضل منه؛ لأنَّ الأوَّل مرتبته عظيمة، وفرْقٌ بين إنسانٍ له مرتبة عالية وإنسانٍ دون ذلك ولكن له أجر. ونضرب مثلًا لهذا، والثواب ليس له نظير، لكن لو أنَّ رجلًا له شرف وسيادة ومنزلة عالية في النَّاس، لكن دراهمه قليلة، وآخر وضيع بين النَّاس ليس له قيمة، لكن دراهمه كثيرة، الأوَّل أفضل، فالمهم أنَّ الماهر بالقرآن المجيد فيه مع السفرة الكرام البررة، وأمَّا الذي يتلوه ويتتعتع فيه وهو عليه شاقٌّ؛ فله أجران، إذًا تالي القرآن ليس بخاسرٍ مهما كان[3].

ولقد قال ربُّ العالمين سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[4].

آياتُه كُلَّما طالَ المدى جُدَدٌ	يُزيِّنُهُنَ جَلَالُ العِتقِ والقِدَمِ[5]

والخلاصة: أنَّ قارئ القرآن الكريم يرتقي بتلاوته في الدنيا والآخرة.

يا قارئَ القُرآنِ حسبُكَ أنَّهُ	شرفٌ به تتعاظمُ الحسناتُ
ورسالةٌ قُدسيةٌ ونجابةٌ	ومهابةٌ تعلو بها الدرجاتُ
فَأنعِمْ به عِزًّا وخُذْ	بضيائِهِ قبسًا تُنيرُ له الفلواتُ
واجعلْ مقامَكَ في الحياةِ لغايةٍ	تسمو بها أُممٌ وتشرفُ ذاتُ[6]

---

(١) عبس ١٣- ١٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٥) برقم (١٧٨٧)بلفظ:" ولكنَّها على قدر نفقتِكِ أو نصبِكِ" أبواب العمرة. باب أجْر العمرة على قَدْر النَّصَبِ، ومسلم في صحيحه (٢/ ٨٧٦) برقم (١٢١١)كتاب الحجِّ. باب بيان وجوه الإحرام، وأنَّه يجوز إفراد الحجِّ والتمتُّع والقران، وجواز إدخال الحجِّ على العمرة، ومتى يحلُّ القارن من نُسُكه.

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ٦٤١) .

(٤) لقمان ٢٧.

(٥) من قصيدة لأحمد شوقي بعنوان: "ريمٌ على القاع بين البان والعلَمِ، البيت السبعون.
toarab.ws/m/poems/poem/859/25.

(٦) لم أقف على قائلها.



١٩ صفر

أفلا يتدبَّرون القرآن

يقول المولى عزَّ وجلَّ في مُحكَم التنزيل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(١)، إنَّ تدبُّر القرآن من أعظم النِّعم، لأنَّه يُشعِر الإنسان بحلاوة القرآن، ويُثمر طمأنينة في القلب وراحة وأُنسًا وسكينة، ومعلومٌ أنَّ شرف الشيء بشرف مُتَعَلَّقِه، ولما كان التدبُّر يتعلَّق بكتاب الله تعالى؛ صار من أشرف الأمور وأَجَلِّها وأفضلِها، وتدبُّرُ القرآن الكريم أمْرٌ من أوامر الله تعالى، وقد جعل الله ذلك مقصودًا من إنزاله؛ كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٢).

قال الشيخ السعدي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ فيه خيرٌ كثيرٌ، وعِلْمٌ غزيرٌ، فيه كلُّ هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يُستضاء به في الظلمات، وكلُّ حُكمٍ يَحتاج إليه المكلَّفون، وفيه من الأدلَّة القطعيَّة على كلِّ مطلوبٍ، ما كان به أجَلَّ كتابٍ طَرَقَ العالمَ منذ أنشأه الله. ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: هذه الحِكمة من إنزاله، ليتدبَّر النَّاسُ آياته، فيستخرجوا عِلْمها، ويتأمَّلوا أسرارها وحِكَمها، فإنَّه بالتدبُّر فيه، والتأمُّل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ تُدركُ بركته وخيره، وهذا يدلُّ على الحثِّ على تدبُّر القرآن، وأنَّه من أفضل الأعمال، وأنَّ القراءة المشتمِلة على التدبُّر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكَّرون بتدبُّرهم لها كلَّ علمٍ ومطلوبٍ، فدلَّ هذا على أنَّه بحسب لُبِّ الإنسان وعقله يحصل له التذكُّر والانتفاع بهذا الكتاب(٣).

قال الشيخ ابن العثيمين- رحمه الله تعالى- في شرح رياض الصالحين: الذين يقرأون القرآن ينقسمون إلى قسمين: قسم لا يعمل به؛ فلا يؤمنون بأخباره، ولا يعملون بأحكامه، هؤلاء يكون القرآن حُجَّةً عليهم، وقسم آخر يؤمنون بأخباره، ويُصدِّقون به، ويعملون بأحكامه، فهؤلاء يكون القرآن حُجَّةً لهم يُحاجُّ عنهم يوم القيامة، لأنَّ النبي ﷺ قال:" القرآنُ حُجَّةٌ لك أو عليك"رواه مسلم(٤)، وفي هذا دليلٌ على أنَّ أهمَّ شيءٍ في القرآن العملُ به، ويُؤيِّدُ هذا قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ

---

(١) محمد ٢٤.

(٢) ص ٢٩.

(٣) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٧١٢).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٠٣) برقم (٢٢٣) كتاب الطهارة. باب فضْل الوضوء.

إِلَيْكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[١]. أي يتفهَّمون معانيها ويعملون بها، وإنَّما أخَّر العمل عن التدبُّر لأنَّه لا يُمكن العمل بلا تدبُّر[٢]. والتدبُّر هو: تأمُّل معانيه وتَبَصُّر ما فيه كمالٌ، قال ابن القيِّم: هو تَحْدِيقُ نَاظِرِ القلبِ إلى معانيه، وجَمْعُ الفِكْرِ على تَدَبُّره وتَعَقُّله[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في مجموع الفتاوى: فإنَّه قد عُلِم أنَّه مَن قرأ كتابًا في الطِّبِّ أو الحساب أو النَّحو أو الفقه أو غير ذلك؛ فإنَّه لا بُدَّ أن يكون راغبًا في فهمه وتَصَوُّر معانيه، فكيف بمَن قرأوا كتاب الله تعالى المنزَّل إليهم، الذي به هداهم الله، وبه عَرَّفَهم الحقَّ والباطل، والخير والشرَّ، والهدى والضلال، والرشاد والغي؟!

ولْتعلمْ أنَّه لا سبيل إلى تحصيل المطالب العالية والكمالات إلَّا بالإقبال عليه وتدبُّره وتفهُّمه.

فمن المعلوم أنَّ رغبتهم فِي فهمه وتصوُّرِ معانيه أعظم الرغبات، بل إذا سمع المتعلِّم من العالِم حديثًا، فإنَّه يرغب في فهمه؛ فكيف بمن يسمعون كلام الله مِن المبلِّغ عنه؟ بل من المعلوم أنَّ رغبة الرسول ﷺ في تعريفهم معاني القرآن أعظم من رغبته في تعريفهم حروفه؛ فإنَّ معرفة الحروف بدون المعاني لا تُحَصِّل المقصود؛ إذ اللَّفظ إنَّما يُرَاد للمعنى[٤].

ولا بُدَّ للمُتدبِّر أن يظهر عليه من التأثُّر بما يقرأ، والخشوع عند قراءته أو سماعه، والإقبال عليه إقبالًا تامًّا دون الاشتغال بما يصرف عن تدبُّره، والإنصات عند سماعه، والعمل بما يدعو إليه، والكف عمَّا يزجر عنه.

قِفْ إنَّها بجلالِها الآياتُ فيها هُدىً وسكينةٌ وثباتُ
رتِّلْ وجوِّدْ ما استطعتَ حروفَها وابسُطْ فؤادَكَ إنَّها النَّفحاتُ
هذا الكتابُ فقُمْ به مُتخشِّعًا مُتدبِّرًا تصفو هناك عِظاتُ
هذا هو الوحيُ المنزَّلُ لا دُجى يبقى لديه ولا تُرى ظُلُماتُ[٥]

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ- رضي الله عنها-:" الْبَيْتُ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ يَتَرَاءَى لِأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تَتَرَاءَى النُّجُومُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ"[٦]. وَأَخْرَجَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ- رضي الله عنه-:"

---

(١) ص ٢٩.

(٢) شرح رياض الصالحين (٤/ ٦٣٧).

(٣) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (١/ ٤٤٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٧).

(٥) لم أقف على قائلها.

(٦) رواه البيهقي في شُعب الإيمان (٣/ ٣٧٠) برقم (١٨٢٩). والحديث ضعَّفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (٧/ ٣٩٦).



نَوِّرُوا مَنَازِلَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ"[١]. وَأَخْرَجَ أيضًا:" يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ؛ لَا تَتَوَسَّدُوا الْقُرْآنَ، وَاتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَفْشُوهُ وَتَدَبَّرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[٢].

وقد قال ﷺ:" إنَّ الله ليرفعُ بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين" رواه مسلم[٣].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنَّه" حَفِظَ البقرة في ثمان سنوات"[٤]، حِفْظَ معرفة وتفسير، وأحكام وفقه، وتطبيق على ما كان من منهج السابقين، كما قال عبد الرحمن السُلمي:" كان الذين يُقرِئوننا القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ لا يتجاوزون بنا العَشْر من الآيات حتَّى نتعلَّم ما فيها من العلم والعمل، فتعلَّمنا العلم والعمل جميعًا"[٥].

يقول حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- في وصف قراءته ﷺ:" وكان إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، أو سؤالٍ سأل، أو تعوُّذٍ تعوَّذَ" رواه مسلم[٦]، هكذا كانت قراءة رسول الله ﷺ قراءة تدبُّر ونظر وتفكُّر، ليست قراءة هذٍ، كما قال ابن مسعود- رضي الله عنه- في وصف القراءة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن، قال:" لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب"[٧].

والخلاصة: أنَّه على المسلم أن يحرص على قراءة القرآن، ليس كأي قراءة، بل قراءة مُتأنِّية، تكتنفها نظرات التدبُّر من كلِّ وجهٍ، فيقف مع القرآن وآياته وكلماته وحروفه، حتَّي يفهم ويتحرَّك قلبه

---

(١) رواه البيهقي في شُعب الإيمان (٣/ ٤٠٣) برقم (١٨٧٥). والحديث ضعَّفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (١٠/ ٢٢٩).

(٢) رواه البيهقي في شُعب الإيمان (٣/ ٣٨٨) برقم (١٨٥٢). والحديث ضعَّفه الألباني كما في مشكاة المصابيح (١/ ٦٧٦).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٥٩) برقم (٨١٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب فضْل مَن يقوم بالقرآن ويُعلِّمه وفضْل مَن تعلَّم حِكمةً مِن فقه، أو غيره فعمل بها وعلَّمها.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) ذَكَرَه شيخ الإسلام في بعض كتبه، يُنظَّر: الفتوى الحمويَّة الكبرى (ص ٢٩٣). الفتوى الحمويَّة الكبرى، المؤلف: تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقِّق: د. حمد بن عبد المحسن التويجري، الناشر: دار الصميعي- الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٦) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٣٦) برقم (٧٧٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل.

(٧) رواه الآجري في أخلاق أهل القرآن (ص ٣٨). أخلاق أهل القرآن، المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: الشيخ محمد عمرو عبد اللطيف بإشراف المكتب السلفي لتحقيق التراث، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

لتلك المعاني التي تُحرِّك الجبال، وحينها يتأثَّر قلبه بآيات الله المسطورة، ويرقُّ فؤاده ويخشع، فيُثمر ذلك ثمرةَ العملِ بهذه الآيات التي بها فلاحُ العبد ورفعتُه في الدنيا والآخرة، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

---

(١) الحشر ٢١.



٢٠ صفر

وإذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ

إنَّ الإسلام يعتني بالظاهر والباطن، ولكنَّ الاهتمام بالظاهر وحده كالسير بقدمٍ واحدةٍ، فلا بُدَّ من التوازن بين هذا وذاك، ولقد أنزل الله- جلَّ وعلا- في المنافقين سورة سُمِّيتْ باسمهم، تفضح بعض مواقفهم، وتُخبِر عن بعض صفاتهم، وكان من جملة ما نَعَتَهُمُ الله تعالى به قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[١]، فقد وصفهم الله- تعالى- بأنَّ الناظر إليهم يُعجَبُ بجمال أجسامهم، ومَن يسمعُهم يُؤخَذ بفصاحة ألسنتهم، لكنَّهم كالهياكل الفارغة، أشباحٌ بلا أرواحٍ، وأجسامٌ بلا أحلامٍ.

وهذه الصفات تتناسب مع حالة النفاق، إذ إنَّ ظاهر المنافق دائمًا خيرٌ من باطنه، فظاهره الإيمان، وباطنه الكُفْر، وهو ذلق اللسان، لكنَّه يقول غير ما يعتقد؛ فهو كذَّاب، وهو جميل الصورة، لكنَّه عاطل من الصفات النبيلة كالإيمان والمروءة والرجولة، وكلِّ ما يُزيِّن الباطن، وقد رُويَ عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- أنَّه قال: كان عبد الله بن أُبي بن سلول (رأسُ النِّفاق) وسيمًا جسيمًا صحيحًا صبيحًا ذلق اللسان، فإذا قال سمع النبي ﷺ مقالته[٢].

ولما كان للظاهر سلطانه القوي في التأثير وانتزاع الإعجاب؛ علَّم النبي ﷺ أصحابه ضرورة تجاوزه إلى المعاني الحقيقية؛ لأنَّها هي الفيصل الحقيقي في تقييم الرجال؛ وقد ورد في الحديث الصحيح: أنَّ رجلًا مرَّ على النبي ﷺ فقال: ما تقولون في هذا ؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خطب أن يُنكَح، وإن شفع أن يُشفَّع، وإن قال أن يُستمَعَ إليه، قالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِن فُقَرَاءِ المسْلِمِينَ، فقال النبي ﷺ: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خطب ألَّا يُنكَح، وإن شَفَعَ ألَّا يُشفَّع، وإن قال ألَّا يُستمَعَ إليه، فقال رسول الله ﷺ:" هذا خيرٌ مِن ملءِ الأرضِ مثلَ هذا" رواه البخاري[٣].

ففضَّل النبيُّ ﷺ الفقيرَ على الغنيِّ، وذلك لا يلزم منه تفضيل كُلِّ فقيرٍ على كُلِّ غنيٍّ، إنَّما أراد أن يُعلِّمهم أنَّ التفاضل لا يقوم أبدًا إلَّا بميزان مُنضبِطٍ، وما يتبعه من أعمال.

وتطرح هذه الآية الكريمة مسألة خطيرة في حياة الإنسانيَّة عامَّة، وحياة المسلمين خاصَّة، هي قضية العلاقة بين الشكل والمضمون، أو الجوهر والمظهر، فليس الجوهر والمظهر شيئَينِ منفصِلَينِ

---

(١) المنافقون ٤.

(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ١٢٤).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٨) برقم (٥٠٩١) كتاب النِّكاح. باب الأكفاء في الدِّين.

انفصالًا تامًّا، بل بينهما علاقةُ تأثُّرٍ وتأثيرٍ، وأخْذٍ وعطاءٍ، وقد ورد ما يدلُّ على هذا؛ فقد كان النبي ﷺ يمسح مناكب أصحابه في الصلاة، ويقول:" استووا، ولا تختلفوا فتختلفَ قلوبُكم" رواه مسلم[١]، والمرء حين ينشرح صدره؛ يظهر ذلك على مُحيَّاه، ومن ثَمَّ قيل: مَن كثُرتْ صلاتُه بالليل حسُنَ وجْهُه في النهار.

قال الشيخ السعدي: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ من روائها ونضارتها، ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: مِن حُسْنِ منطقهم تستلذُّ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدي الصالح شيءٌ، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ لا منفعة فيها، ولا يُنال منها إلَّا الضرر المحض، ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم، والريب الذي في قلوبهم يخافون أن يطَّلع عليهم، فهؤلاء ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ على الحقيقة، لأنَّ العدوَّ البارز المتميّز؛ أهونُ من العدوِ الذي لا يُشعَر به، وهو مخادِعٌ ماكِرٌ، يزعم أنَّه وليٌّ، وهو العدوُّ المبين، ﴿فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يُصرَفون عن الدين الإسلامي بعد ما تبيَّنتْ أدلَّتُه، واتَّضحتْ معالمه، إلى الكُفْر الذي لا يُفيدُهم إلَّا الخسار والشقاء[٢].

لقد جعل الإسلام المقياس الشرعي الوحيد في التصنيف الحقيقي للنَّاس؛ هو هذا المعيار الشرعي الوحيد في التمييز بينهم، وتجد أنَّ الله تعالى دلَّل على هذا المقياس أو المعيار في نحو قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣].

فكان أكرمَ النَّاس عند الله جلَّ وعلا وأقربَهم إليه منزلًا هم الأتقياءُ الأنقياءُ الأصفياء.

وقال الله عزَّ وجلَّ أيضًا: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٤]، فجعَل الله سبحانه وتعالى التقوى خيرَ ما يَتزوَّد به العبدُ ليوم الرحيل، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٥]؛ فالله تعالى جعَل الخير كُلَّ الخير في التزامِ التقوى، وبمفهوم المخالَفة: فإنَّ الزُّهد في التقوى شرٌّ عظيمٌ ليس بعده شرٌّ.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٣٢٣) برقم (٤٣٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضْل الأوَّل فالأوَّل منها، والازدحام على الصَّفِّ الأوَّل، والمسابقة إليها، وتقديم أولي الفضْل، وتقريبهم من الإمام.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٦٤).

(٣) الحجرات ١٣.

(٤) البقرة ١٩٧.

(٥) الشعراء ٨٨- ٨٩.

وإنَّ القلب أميرُ البدن وأمينُه؛ فإنْ عَمَّر الإنسانُ قلبَه بتقوى الله تعالى؛ صلحَ قلبُه، ومَن صلحَ قلبُه؛ صلحتْ سائر جوارح بدنه، ومَن فسد قلبُه فسدتْ سائرُ جوارح بدنه، وعلامة فساده: تَرْكُ التقوى، وهي رقابة الله جلَّ وعلا، واستشعار معيَّته سبحانه وتعالى، فلا يراك حيث نهاك، ولا يفقِدُك حيث أمرك، وهو العليمُ العلَّام الذي يعلم جهرك وسِرَّك ونجواك.

أخرج البخاريُّ ومسلم عن النُّعمانِ بن بشير- رضي الله عنهما- قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:" ألا وإنَّ في الجسد مُضغةً؛ إذا صلَحَت صلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فسَدتْ فسَد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ" [١].

وأخرج مسلمٌ عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" التقوى ها هنا"، ويشير إلى صدره ثلاث مرَّاتٍ، رواه مسلم[٢].

إنَّ النبي ﷺ جعَل لصاحب الدِّين والخُلق القدْرَ العظيمَ، وفاضَلَ بينهما وبين غيرهما من أصحاب الجاهِ والمال، والحَسَبِ والسُّلطان، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ:" ومَن بطَّأ به عمَلُه لم يُسرِعْ به نسَبُه" رواه مسلم[٣].

أي: مَن لم يرفَعْه حُسْنُ عملِه إلى منزلةِ أهل الطاعة والبِرِّ ممَّن رضي الله عنهم؛ لم يشفَعْ له شرَفُ نسَبِه، ولا حسَبُ آبائه، ولم يُسرِعْ به إلى الجنَّة فيكون مِن أهلها.

إنَّ الله- عزَّ وجلَّ- أعزَّ بلالًا بحُسْنِ إسلامه، وقد كان عبدًا أسودَ حبشيًّا، وأذَلَّ أبا جهلٍ وصناديدَ قريش بكُفْرهم وشِرْكِهم وغَيِّهم، وقد كانوا سادةَ مكَّةَ وكُبَراءَها ووجهاءَها وأسيادَها.

والخلاصة: مَن يُفاضِلون بين الناس، فيرفَعون منهم أقوامًا ويضَعون منهم آخرينَ، ويبذلون الاحترامَ لبعضِهم ويتنكَّرون في بذْله لآخرين، نعم أَمَرَنا الله تعالى ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٤]؛ ولكن ينبغي أن نعلَم أن أساسَ الاحترام والتبجيل والتعظيم والتقديم والتفصيل عند ربِّ العالَمين هو: التقوى وما يتَّصل بها مِن حُسْنِ السَّمتِ، واستقامة على الدِّين.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم (٥٢) كتاب الإيمان. باب فضْل مَنِ استبرأ لدينه. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩) كتاب المساقاة. باب أخْذ الحلال وترْك الشبهات.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٦) برقم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب. باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٤) برقم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل الاجتماع على تلاوة القرآن.

(٤) البقرة ٨٣.

وصدق الشاعر حين نصح فقال:

لَا خَيـرَ فـي وُدِّ امـرِءٍ مُتَمَلِّـقٍ ... حُلـوِ اللِّسـانِ وقَلبُـهُ يَتَلَهَّـبُ

يُعطيكَ مِن طَرَفِ اللِّسانِ حَلَاوَةً ... وَيَـرُوغُ مِنْـكَ كما يَـروغُ الثَّعْلَبُ

فَاختَرْ قَرِيْنَكَ واصْطَفِيهِ مُفَاخِـرًا ... إِنَّ القَرِيْنَ إلى المُقْارَنِ يُنْسَبُ[(١)]

(١) من قصيدة للشاعر صالح عبد القدوس بعنوان: فدعِ الصبا (القصيدة الزينبيَّة) يُنظَر: مجموعة القصائد الزُّهديَّات (٢/٤٨٠).



٢١ صفر

تعدل ثلث القرآن

إنَّ سورة الإخلاص لها من الفضائل ما لها، ويكفي أنَّ قارئها بصدْقٍ يُحِبُّه الله تعالى، ومَن أحبَّها دخل الجنَّة، ومَن قرأها ثلاثًا كان كمَن قرأ القرآن كلَّه، ومَن قرأها عَشرًا بنى اللهُ له في الجنَّة قصرًا، ومَن زاد زادَهُ اللهُ أجرًا وفضْلًا، فسورة الإخلاص سورة عظيمة جمعتْ فضائل سامية جليلة، فقد جمعتْ أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة وتوحيد الأسماء والصفات، وقد جاء في فضْلها أحاديث كثيرة، وورد الحديث بفضْل قراءتها في الصلاة وخارجها، وفي أدبار الصلوات، وفي الصباح والمساء، وعند النوم والقيام منه، والرقية بها، وأنَّها تعدل ثلث القرآن إلى غير ذلك من الفضائل، وسورة الإخلاص سورة مكيَّة، وعدد آياتها أربع آيات نزلت بعد سورة النَّاس.

وممَّا يدل على أهمِّيَّة هذه السورة أنَّ بعض أئمة الإسلام أفردها بالتأليف، حتَّى ألف فيها الإمام أبو محمد الحسن بن علي البغدادي الخَلَّال مُؤلَّفًا تحت عنوان" مِن فضائل سورة الإخلاص وما لقارئها".

وممَّا يدلُّ على فضْل هذه السورة كثرةُ أسمائها، وكثرةُ الأسماء تدلُّ على شرف المسمَّى، ولها نحو عشرين اسمًا، تصبُّ كلُّها في فَلَكِ التوحيد، والردِّ على عُبَّاد الأصنام والأوثان وجميع الأديان الباطلة.

وأشهر أسمائها: الإخلاص، وسُمِّيتْ بذلك لأنَّ في قراءتها خلاصًا من عذاب الله، أو لأنَّ فيها إخلاصًا لله من كلِّ عيبٍ ومن كلِّ شريكٍ، أو لأنَّها خالصة لله ليس فيها أمْرٌ ولا نَهْيٌ، وقيل: سُمِّيتْ بالإخلاص لأنَّها أخلصت التوحيد لله، أو لأنَّ قارئها قد أخلص دينه لله.

ومن أسمائها: قل هو الله أحد، وقد بوَّب البخاري في الصحيح باب فضْل" قل هو الله أحد"[(١)]؛ ومن أسمائها: التوحيد، والأساس، والتَّفريد والتَّجريد، والنَّجاة والولاية، والمعرفة والنِّسبة، والصَّمَد والمعوِّذة، والمانعة والمذكِّرة، والنُّور والإيمان، والمقَشْقِشة والمعوِّلة والبراءة.

وقد جاء في سبب نزول هذه السورة الكريمة أنَّها جاءت ردًّا على مُشركي مكَّة أو طائفة من أهل الكتاب، من ذلك ما ورد عن أُبي بن كعب- رضي الله عنه- قال: إنَّ المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربَّك. فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[(٢)][(٣)].

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٨٩).

(٢) سورة الإخلاص ١-٤.

(٣) رواه الترمذي في جامعه سُنن الترمذي (٥/ ٣٠٨) برقم (٣٣٦٤) باب ومن سورة الإخلاص. والحديث حسَّنه الألباني بدون زيادة وردت في الترمذي كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٧/ ٣٦٤).



وفي رواية أخرى: عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- قال: جاءت اليهود إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، منهم كعب بن الأشرف وحُيي بن أخطب، فقالوا: يا محمد؛ صِفْ لنا ربَّك الذي بعثك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (١) (٢).

ومن فضائل هذه السورة الكريمة: أنَّها تعدل ثُلُثَ القرآن؛ كما روى مُسلمٌ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ:" قُلْ هُوَ الله أحد" تعدل ثُلُثَ الْقُرْآن" رواه مسلم(٣).

ومن ذلك: أنَّ قراءتها والتصديق بها من دلالات الإيمان؛ فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَجُلًا قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ فَقَرَأَ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى" قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ" حَتَّى انْقَضَتِ السُّورَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" هَذَا عَبْدٌ عَرَفَ رَبَّهُ"، وَقَرَأَ فِي الْآخِرَةِ" قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" حَتَّى انْقَضَتِ السُّورَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" هَذَا عَبْدٌ آمَنَ بِرَبِّهِ"، فَقَالَ طَلْحَةُ: فَأَنَا أَسْتَحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ فِي هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ" رواه ابن حبَّان(٤).

ومن ذلك أيضًا: مَنْ أحبَّ سورة الإخلاص أحبَّه اللهُ، وهى صِفَةُ الرَّحْمَن، ففي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ- رضى اللهُ عنها- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابه فِي صلَاتهم فيختم بـ" قل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: لِأَنَّهَا صفة الرَّحْمَن، وَأَنا أُحِبُّ أَن أَقرأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" أَخْبِرُوهُ أَن الله يُحِبُّهُ "(٥).

---

(١) سورة الإخلاص ١-٤.

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٨) برقم (٦٠٦) والهروي في ذمِّ الكلام وأهله (٣/ ٢١٩) برقم (٦٣٨). الأسماء والصفات للبيهقي، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨ هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدَّم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة السوادي، جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م. ذمُّ الكلام وأهله، المؤلف: شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي عبد الله بن محمد بن علي بن مت الأنصاري، شهرته : الهروي، المحقِّق: أبو جابر عبد الله بن محمد بن عثمان الأنصاري، دار النشر: مكتبة الغرباء. والحديث ضعَّفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (١١/ ٣٤٩).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٥٦) برقم (٨١١) كتاب الذِّكْر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل قراءة قل هو الله أحد.

(٤) رواه ابن حبَّان في صحيحه (٦/ ٢١٤) برقم (٢٤٦٠). والحديث صحَّحه الألباني كما في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبَّان (٤/ ٢٠٠).

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١١٥) برقم (٧٣٧٥) كتاب التوحيد. باب ما جاء في دعاءِ النبيِّ ﷺ أُمَّتَه إلى توحيد الله تبارك وتعالى. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٥٧) برقم (٨١٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب فضْل قراءة قل هو الله أحد.



ومن ذلك أيضًا: أنَّ مَنْ قرأ سورة الإخلاص عَشْر مرَّاتٍ بنى الله له قصرًا في الجنَّة؛ فعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ قَرَأَ " قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ "حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ بَنَى اللهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: إِذًا نَسْتَكْثِرَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" اللهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ" أخرجه أحمد[١].

ومن ذلك أيضًا: أنَّه ما أُنزِلَتْ في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مِثْلُهُنَّ؛ فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قال رسولُ الله ﷺ: يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ؛ أَلَا أُعَلِّمُكَ سُوَرًا مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهُنَّ، لَا يَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ لَيْلَةٌ إِلَّا قَرَأْتَهُنَّ فِيهَا" قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" أخرجه أحمد[٢].

قال الشيخ السعدي في تفسيره: ﴿ قُلْ﴾ قولًا جازمًا به، مُعتقِدًا له، عارِفًا بمعناه، ﴿ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾أي: قد انحصرت فيه الأحديَّة، فهو الأحد المنفرِد بالكمال، الذي له الأسماء الحُسنى، والصفات الكاملة العُليا، والأفعال المقدَّسة، الذي لا نظير له ولا مثيل ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾أي: المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مُفتقِرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهمَّاتهم، لأنَّه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي كمل في رحمته الذي وسعتْ رحمتُه كُلَّ شيءٍ، وهكذا سائر أوصافه، ومِن كماله أنَّه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾لكمالِ غِناه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لا في أسمائه، ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى، فهذه السورة مُشتمِلةٌ على توحيد الأسماء والصفات[٣].

وحين سُئِل سماحة الشيخ ابن باز- رحمه الله-: هل صحيح أنَّ مَن قرأ سورة الإخلاص ثلاث مرَّاتٍ يُعتبَر وكأنَّه ختم المصحف؟ فأجاب بقوله: نعم تعدل ثُلُثَ القرآن، هذه السورة العظيمة أخبر النبي ﷺ أنَّها تعدل ثُلُثَ القرآن، إذا كرَّرها ثلاثًا كان بمثابة مَن خَتَمَ القرآن، فينبغي الإكثارُ من قراءتها، لكن لا نهجر بقيَّة القرآن، نجتهد في قراءة القرآن كلِّه؛ حتَّى يحرزَ الأجرَ أكثرَ من أوَّله إلى آخره، ويُكرِّر ذلك[٤].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٤/ ٣٧٦) برقم (١٧٤٥٢). والحديث حسَّنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ١٣٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٨/ ٦٥٤) برقم (١٥٦١٠). والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٥٢).

(٣) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٩٣٧).

(٤) الموقع الرسمي لسماحة الشيخ الإمام ابن باز. نورٌ على الدرب. فضْلُ قراءة سورة الإخلاص ثلاث مرَّات.

والخلاصة: ما ذكره الشيخ أبو بكر الجزائري في كتابه أيسر التفاسير: إنَّ من هداية هذه الآيات أنَّها تُرشِدُ إلى: معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، وتقرير التوحيد والنُّبوَّة، وبطلان نسبة الولد إلى الله تعالى، وإلى وجوب عبادته تعالى وحده لا شريك له فيها، إذ هو الله ذو الألوهيَّة على خلْقه دون سواه[١].

https://binbaz.org.sa/fatwas/10990

(١) أيسر التفاسير للجزائري (٥/ ٦٢٩).

٢٢ صفر

ذِكْرُك أخاك بما يَكرَه

إنَّه لمن المحزن أن يفعلَ الإنسانُ بعض الطاعات ثم يُضيِّعها بسهولة مِن دون اكتراثٍ بخطرِ ما يفعل، ويحسبُه البعضُ أمرًا هيِّنًا وهو عند الله عظيم، إنَّه مرض عضال، وداء خبيث، يحصد الحسنات، ويجلب السَّيِّئات، ويُضيّع الأوقات، ألا وهو داء" الغِيبة"، والذي ساعد على تفشِّيه في المجتمع قِلَّةُ الوازع الديني وكثرةُ أوقات الفراغ، كما أنَّ لسهولة الاتصالات الهاتفية والدخول على مواقع التواصل الاجتماعي سهمًا كبيرًا في ذلك، ويعتبر البعضُ أنَّ الغيبة والتحدُّث عن الناس، والخوضَ في أمورِهم وأعراضِهم من باب التفكُّه والسمر والتسلية والترفيه، ويُطلِق البعض على مثل هذه الأحاديث فاكهة المجالس، وبئستْ هذه الفاكهة.

قال الإمام النووي:" إنَّه لينبغي على كُلِّ مُكلَّفٍ أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلَّا كلامًا ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلامُ وتركُه في المصلحة؛ فالسُّنَّة الإمساك عنه؛ لأنَّه قد يجُرُّ إلى حرامٍ أو مكروه، وذلك كثيرٌ في العادة، والسلامة لا يعدلها شيءٌ"(١).

فمَنِ استقام لسانه استقامتْ جوارحه، ومَن عصى لسانه وخاض في أعراض النَّاس عصتْ جوارحه وانتهكت حُرُمات الله، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال:" إذا أصبح ابن آدم فإنَّ الأعضاء كُلَّها تُكفِّر اللِّسان (أي تذلُّ وتخضع) تقول: اتَّقِ الله فينا، فإنَّما نحن بك؛ فإنِ استقمتَ استقمنا، وإنِ اعوججتَ اعوججنا" رواه الترمذي(٢).

لقد حرم الله سبحانه الغيبة وذمَّها وذمَّ مَن يقع فيها، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(٣)، وقال تعالى ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولًا﴾(٤)، وقال تعالى ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٥).

---

(١) رياض الصالحين ط الرسالة (ص ٤٢٧). رياض الصالحين، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦ هـ)، المحقّق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠٦) برقم (٢٤٠٧) أبواب الزهد. باب ما جاء في حِفْظ اللِّسان. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٤٠٧).

(٣) الحجرات ١٢.

(٤) الإسراء ٣٦.

(٥) ق: ١٨.

وعن أبي موسى- رضي الله عنه- قال: قلتُ: يا رسول الله؛ أيُّ المسلمين أفضل؟ قال:" مَن سلِمَ المسلمون مِن لسانه ويده" رواه البخاري ومسلم(١).

وعن عقبة بن عامر- رضي الله عنه- قال: قلتُ: يا رسول الله؛ ما النجاة؟ قال:" أمسِكْ عليك لسانك، ولْيسعْكَ بيتُكَ، وابكِ على خطيئتك" رواه الترمذي(٢).

وفي حديث معاذ بن جبل- رضي الله عنه- عندما أخبره الرسول ﷺ برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؛ ثم قال ﷺ:" ألا أخبرك بِملاك ذلك كلِّه؟ قلتُ: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: كُفَّ عليك هذا، قلتُ: يا رسول الله؛ وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلَّم به؟ فقال: ثكلتك أمُّك!! وهل يكبُّ الناسَ في النَّار على وجوههم إلَّا حصائدُ ألسنتهم؟!" رواه ابن ماجه والترمذي(٣).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال ﷺ:" يا معشر مَن آمن بلسانه ولم يدخلِ الإيمانُ قلبه؛ لا تغتابوا المسلمين، ولا تتَّبعوا عوراتِهم؛ فإنَّه مَن تتبَّع عورة أخيه المسلم تتبَّع الله عورته، ومَن تتبَّعَ الله عورته؛ يفضحه ولو في جوف بيته" رواه أحمد وأبو داود(٤).

قال الشيخ السعدي في تفسيره: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ والغيبة كما قال النبي ﷺ:" ذِكْرُكَ أخاكَ بما يَكرَهُ ولو كان فيه" رواه مسلم(٥)، ثم ذَكَرَ مثلًا مُنفِّرًا عن الغيبة، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ (شبَّه أكْلَ لحمِه ميتًا، المكروه للنُّفوس غاية الكراهة؛ باغتيابه، فكما أنَّكم تكرهون أكْل لحمه، وخصوصًا إذا كان ميتًا فاقد الروح، فكذلك فلْتكرهوا غيبته، وأكْلَ لحمِه حيًّا، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ والتَّوَّاب الذي يأذن بتوبة عبده، فيوفِّقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيمٌ بعباده، حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبِل منهم

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم (١١) كتاب الإيمان. باب أي الإسلام أفضل. ومسلم في صحيحه (١/ ٦٦) برقم (٤٢) كتاب الإيمان. باب بيان تفاضُل الإسلام وأي أموره أفضل.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠٥) برقم (٢٤٠٦) أبواب الزهد. باب ما جاء في حفْظ اللِّسان. بلفظ:" املكْ عليك لسانك...". والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٤٠٦).

(٣) رواه ابن ماجه في سُننه (٢/ ١٣١٤) برقم (٣٩٧٣) كتاب الفتن. باب كفِّ اللِّسان في الفتنة. والترمذي في جامعه (٥/ ١٢) برقم (٢٦١٦) أبواب الإيمان. باب ما جاء في حُرمة الصلاة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٦/ ١١٦).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣٣/ ٢٠) برقم (١٩٧٧٦). وأبو داود في سُننه (٤/ ٢٧٠) برقم (٤٨٨٠) كتاب الأدب. باب في الغيبة. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (١٠/ ٣٨٠).

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠١) برقم (٢٥٨٩) كتاب البر والصلة والآداب. باب تحريم الغيبة.



التوبة، وفي هذه الآية دليلٌ على التحذير الشديد من الغيبة، وأنَّ الغيبة من الكبائر؛ لأنَّ الله شبَّهها بأكْلِ لحمِ الميتِ، وذلك من الكبائر[١].

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية: وهذا من أحسن القياس التمثيلي، فإنَّه شبَّه تمزيق عِرض الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يُمزِّق عِرض أخيه في غيبته؛ كان بمنزلة مَن يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت، ولما كان المغتاب عاجزًا عن دفْعه عن نفسه بكونه غائبًا عن مجلس ذمِّه؛ كان بمنزلة الميت الذي يُقطع لحمُه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ولما كان المغتاب مُحِبًّا لذلك مُعجَبًا به؛ شُبِّه بمَن يُحِبُّ أكْلَ لحمِ أخيه ميتًا، ومحبَّتُه لذلك قدرٌ زائدٌ على مجرد أكْلِه، كما أنَّ أكْلَه قدرٌ زائدٌ على تمزيقه؛ فاحتجَّ عليهم بما كرهوه على ما أحبُّوه. وشبَّه لهم ما يُحِبُّونه بما هو أكره شيءٍ إليهم، وهم أشدُّ شيءٍ نفرة عنه؛ فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة؛ أن يكونوا أشدَّ شيءٍ نفرة عمَّا هو نظيره ومشبهه[٢].

واعلم أنَّ الغيبة لا تقتصر على اللِّسان؛ فالغيبة باللِّسان إنَّما حُرِّمت لأنَّ فيها تفهيم الغير نقصان أخيك، وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء، والغمز والهمز، والكتابة والحركة، وكلُّ ما يُفهِم المقصود فهو داخلٌ في الغِيبة، وهو حرامٌ.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالتْ: دخلتْ علينا امرأةٌ، فلمَّا أومأتُ بيدي أنَّها قصيرةٌ؛ قالﷺ:" اغتبْتِيها" رواه أبو داود[٣].

ومن ذلك أيضًا: المحاكاة، كأن يمشي مُتعارِجًا، أو كما يمشي؛ فهو غِيبة، بل هو أشدُّ من الغيبة؛ لأنَّه أعظم في التصوير والتفهيم، وكذلك الغيبة بالكتابة؛ فإنَّ القلم أحدُ اللِّسانَين.

فإذا وقع شخص في هذه الكبيرة وجب أن يُبادِر بالتوبة، وقد تنازع العلماء في كفَّارة المغتاب، ولكنَّهم اتَّفقوا جميعًا على توبته كخُطوةٍ أولى، والتوبة شروطها ثلاثة: الإقلاع عن المعصية، وأن يندم على فِعْلها، والعزم على ألَّا يعود، والتوبة من الغيبة يُزاد فيها شرطٌ رابعٌ؛ لأنَّ المغتاب جنى جنايتَين:

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٠٢) .

(٢) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين (١/ ١٣٠). إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيِّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ– ١٩٩١م.

(٣) رواه أبو داود (٤/ ٢٦٩) برقم (٤٨٧٥) ولفظه عن عائشة- رضي الله عنها- أنَّها قالت:" قلتُ للنبي ﷺ: حسبُكَ من صفية كذا وكذا، قال غير مسدد: تعني قصيرة، فقال:« لقد قلتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزجتْه» كتاب الأدب. باب في الغيبة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (١٠/ ٣٧٥).

الأولى: على حقِّ الله تعالى، إذ فعَلَ ما نهاه عنه، فكفَّارتُه التوبة والندم، الثانية: على محارم المخلوق. فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجُل؛ جاء إليه واستحلَّه، وأظهر له الندم على فِعْله، وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجُل؛ جعل مكان استحلاله الاستغفار له، لئلَّا يُخبِرَه بما لا يعلمُه فيُوغر صدره.

فإنْ عبتَ قومًا بالذي فيكَ مثلُهُ   فكيفَ يعيبُ الناسَ مَن هو أعورُ

وإنْ عبتَ قومًا بالذي ليسَ فيهمُ   فذلكَ عندَ اللهِ والنَّاسِ أكبرُ[١]

والخلاصة: أن يحرص المسلم على أن يصون لسانه عن كلِّ ما يشينه، وأن يحترز من كلِّ قولٍ يُطيل وقفته يوم القيامة بين يدي الله، وإن كان قد وقع في شيءٍ من هذه الآثام فلْيُبادِرْ بتوبةٍ عاجلةٍ، ولْيَرُدَّ المظالم إلى أهلها قبل أن يأتيَ يومٌ لا درهم فيه ولا دينار، ولكن الحسنات والسَّيِّئات، ولْيحرصْ كلٌّ على دينه وألَّا يُضيِّع حسناتِه؛ قال الحسن البصريُّ- رحمه الله-: واللهِ لَلْغيبةُ أسرعُ في دِينِ الرَّجُلِ مِن الأكلةِ في الجسد[٢]. نسأل الله العافية.

(١) يُنظَر: موارد الظمآن لدروس الزمان (٥/ ٢٨). موارد الظمآن لدروس الزمان، خُطب وحِكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان، المؤلف: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ)، الطبعة: الثلاثون، ١٤٢٤هـ.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذمِّ الغيبة والنميمة (ص ٢١). ذمُّ الغيبة والنميمة، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: بشير محمد عيون، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق- سورية، مكتبة المؤيد، الرياض- السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.



٢٣ صفر

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ

إنَّ الماء يُمثِّل أهمَّ عناصر البيئة التى تحتاجها جميع الكائنات الحيَّة على وجه الأرض، فللماء أهمِّيَّة قصوى في الاسلام، إذ يُعتبَر نعمة من الله تهب الحياة وتديمها وتُطهِّر البَشَرَ والأرض، وثمَّة إشارات عدَّة في القرآن الكريم إلى المياه وما يتَّصل بها من ظواهر، فعلى سبيل المثال تتكرَّر فيه كلمة (ماء) ثلاثًا وستين مرَّة، وكلمة (نهر) و(أنهار) أربعًا وخمسين مرَّة، وكذلك فإنَّ القرآن يحوي بين دفتيه كلمات لا تبتعد عن الماء في مضمونها ومقتضاها مثل (العيون) و(الينابيع) و(المطر) و(البرد) و(الغمام) و(الرياح) وقد وردت هذه الكلمات في كثيرٍ من الآيات.

بل حتَّى الجنَّة جعل الله فيها من نعيم أهل الجنَّة؛ وجود الأنهار للذين آمنوا وعملوا الصالحات، كما قال ربُّ العالمين: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾(١).

ولقد تحدَّث القرآن الكريم عن الماء بأبلغ الكلام؛ ممَّا يُوضِّح أهمِّيَّته وضرورته، ووصفه الله تعالى في كتابه بأوصافٍ عدَّةٍ، منها: الطهور، والمبارك، والغدق، وغيرها.

فممَّا جاء في القرآن الكريم حول الماء؛ إخبار الله عزَّ وجلَّ فيه أنَّ المخلوقات كلَّها من الماء، كما أخبر أنَّ حياة الأرض وما عليها من كائنات كان بالماء، ولو ذهب الماء لماتت الأرض وماتت الكائنات جميعًا، يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ﴾(٢)، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾(٣).

كما قرَّر القرآن الكريم حقيقةً مُهمَّةً حول الماء، وهي أنَّ أنواع الثمرات المتكاثرة كلَّها تخرج من ماءٍ واحدٍ لا اختلاف فيه، كما قال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنۡ أَعۡنَٰبٍ وَزَرۡعٌ وَنَخِيلٌ صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾(٤).

وممَّا ورد في القرآن الكريم حول الماء أيضًا؛ امتنان الله على عباده بنعمةِ جعْلِه الماءَ طهورًا لهم، فبها أصبح الماءُ مُطهِّرًا ومُزيلًا للأوساخ والنَّجاسات، فصلحت بذلك حياة الإنسان، قال تعالى:

---

(١) البقرة ٢٥.

(٢) النور ٤٥.

(٣) النحل ٦٥.

(٤) الرعد ٤.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ٤٩ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾[1]، وصدق الشاعر حين قال:

إنَّ السَّماءَ إذا لم تبكِ مُقلتُها لم تضحكِ الأرضُ عن شيءٍ منَ الزَّهرِ[2]

أمَّا السُّنَّة النَّبويَّة فقد جعل رسول الله ﷺ الماء من الأمور المشتركة بين المسلمين، والتي يحرُم على أحدهم امتلاكها إذا ألحق ذلك ضررًا بهم، وتوعَّد فاعلَ ذلك بوعيدٍ شديدٍ، فقال ﷺ:" المسلمون شركاء في ثلاثٍ: في الماء، والكلإ، والنَّار" رواه ابن ماجه[3]، وقال أيضًا:" ثلاثة لا يُكلِّمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم: رجلٌ على فضْل ماء بطريق يمنع منه ابن السبيل، ورجلٌ بايع رجلًا لا يبايعه إلَّا للدنيا؛ فإن أعطاه ما يريد وفَّى له وإلَّا لم يفِ له، ورجلٌ ساومَ رجلًا بسلعةٍ بعد العصر، فحلف بالله لقد أعطى بها كذا وكذا فأخذها" رواه البخاري[4].

كما جاءت السُّنَّة النَّبويَّة حاثَّة للمسلمين على ترْك الإسراف بالماء، حتَّى وإن كان ذلك خلال الوضوء والاغتسال الشرعي. فقد مَرَّ ﷺ بسَعدٍ بن أبي وقَّاص- رضي الله عنه- وهو يتوضَّأُ، فقال:" ما هذا السَّرَفُ يا سَعدُ؟ قال: أفي الوُضوءِ سَرَفٌ؟ قال: نعمْ، وإنْ كنتَ على نَهرٍ جارٍ" رواه ابن ماجه[5].

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾[6].

قال الشيخ السعدي في تفسيره: أي: أوَلَم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربِّهم، وجحدوا الإخلاص له في العبوديَّة؛ ما يدلُّهم دلالة مشاهدة، على أنَّه الربُّ المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء

---

(١) الفرقان ٤٨ – ٥٠.

(٢) يُنظَر: التمثيل والمحاضرة (ص ٢٣٦). التمثيل والمحاضرة، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، المحقِّق: عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: الدار العربية للكتاب، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

(٣) رواه ابن ماجه في سُننه (٢/ ٨٢٦) برقم (٢٤٧٢) كتاب الرهون. باب المسلمون شركاء في ثلاث. والحديث صحَّحه الألباني كما صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (٥/ ٤٧٢).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٧٨) برقم (٢٦٧٢) كتاب الشهادات. باب اليمين بعد العصر.

(٥) رواه ابن ماجه في سُننه (١/ ١٤٧) برقم (٤٢٥) كتاب الطهارة وسُننها. باب ما جاء في القصْد في الوضوء وكراهية التعدِّي فيه. والحديث ضعَّفه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (١/ ٤٩٧).

(٦) الأنبياء ٣٠.



والأرض فيجدونهما رتقًا، هذه ليس فيها سحاب ولا مطر، وهذه هامدة ميتة، لا نبات فيها، ففتقناهما- السماء بالمطر، والأرض بالنبات-، أليس الذي أوجد في السماء السحاب؛ بعد أن كان الجوُّ صافيًا لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلدٍ ميّتٍ قد اغبرّتْ أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزّتْ، وتحرّكتْ، وربَتْ، وأنبتَتْ من كلِّ زوجٍ بهيجٍ، مختلف الأنواع، مُتعدِّد المنافع، أليس ذلك دليلًا على أنّه الحقُّ، وما سواه باطل، وأنّه مُحيي الموتى، وأنّه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إيمانًا صحيحًا، ما فيه شكٌّ ولا شِرْكٌ(١).

وقد اختُلِفَ في معنى الآية: هل المراد بها الكائنات الحيَّة المتحرّكة فقط، لقوله تعالى:﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾(٢)، أم يدخل فيه الأشجار كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾(٣)، والنَّار على اعتبار العموم يُمكنُ إدخالها فيما كان أصله الماء، ويدلُّ له قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾(٥)، والواقع الآن يشهد باستخراج كثير من المحروقات من الماء كالبترول والغاز وغيرهما، وكونُ الماءِ أصلًا للنَّار وهو يخمدها ويُميتها لا غرابة فيه؛ فالإنسان مخلوقٌ من الماء، والماء يُغرقه ويُهلكه، وفي هذا ردٌّ على مَن ذَكَرَ أنَّ النَّار ليست مخلوقةً من الماء، وإنَّما تُخمَدُ بالماء.

إذا الماءُ يومًا أفاضَ عطاهْ — وصارتْ به أرضُنا زاهيهْ
تدفّقَ شلّالُه مِنْ عُلاهْ — تلينُ بِهِ أرضُنا القاسيهْ
فمَن يهدرِ الماءَ كان جزاهْ — عذابًا على نفسِهِ الجانيهْ
تعلّم بُنيَّ فإنَّ المياهْ — نعيشُ بها نِعمةً هانيهْ
فخصَّه ربّي بِسِرِّ الحياهْ — بِهِ تجرى أنفاسُنا الجاريهْ
صارَ لِزامًا شُكْرُ الإلهْ — ليحفظَهُ نِعمةً غاليهْ(٦)

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٢٢).
(٢) النور ٤٥.
(٣) الأنعام ٩٩.
(٤) يس ٨٠.
(٥) الواقعة ٧١ – ٧٢.
(٦) لم أقف على قائلها.

والخلاصة: أنَّ الماء أساس الحياة على الأرض، وقد أورد الله تعالى ذلك في كتابه، إذ قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1]، فهو سائل الحياة الأوَّل، دبَّ في عروق الإنسان ليُسهِّل العمليَّات الحيويَّة فيه، وفي أوراق الشجر، وجرى أنهارًا وعيونًا على سطح الأرض، وأُخرِجَ الماءُ من الأرض إخراجًا، وتلك حقيقةٌ ذَكَرَها الله تعالى في مُحكَمِ آياته، وجاء العلم الحديث فصدَّقها، والواجب علينا أن نعرف قيمة هذه النعمة العظيمة، وأن نحافظ عليها بعدم إهدارها أو الإسراف فيها أو تلويثها، وأن نشكر الله عليها، فدوامُ النِّعمِ مقرونٌ بشُكْرِها.

(١) الأنبياء ٣٠.



٢٤ صفر

ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ

إن الله تعالى اصطفى لصُحبة رسوله ﷺ خير النَّاس وأفضلهم، وهكذا أتباع الرسل وأصحابهم في كلِّ حقبةٍ من حقب الزمان كانوا أفضل النَّاس، وإنَّ أفضل أصحاب الأنبياء على الإطلاق أصحاب رسول الله محمد ﷺ كما قال ابن مسعود:" إنَّ الله نظر في قلوب العباد؛ فوجد قلب محمدٍ ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمدٍ ﷺ؛ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد؛ فجعلهم وزراء نبيِّه ﷺ يُقاتَلون على دينه"(١).

ورُوي عنه أيضًا أنَّه قال:" مَن كان مُستَنًّا فلْيستنَّ بمَن قد مات، فإنَّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفتنةُ، أولئك أصحابُ محمَّدٍ ﷺ كانوا واللهِ أفضلَ هذه الأُمَّة، وأبرَّها قلوبًا، وأعمقَها عِلْمًا، وأقلَّها تكلُّفًا، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيِّه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضْلهم، واتَّبعوهم في آثارهم، وتمسَّكوا بما استطعتم مِن أخلاقهم ودينهم، فإنَّهم كانوا على الهُدى المستقيم(٢)، وإنَّ خيرَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أبو بكر- رضي الله عنه- صاحبُ رسول الله ﷺ في الغار، ورفيقُه في الأسفار، وضجيعُه في الروضة المحفوفة بالأنوار.

ورُويَ عن مسروق قال: حُبُّ أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما- ومعرفةُ فضْلهما من السُّنَّة(٣).

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٨٤) برقم (٣٦٠٠). وقال الألباني عنه:" حَسَنٌ موقوف" كما في تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص٥٣٠). تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣٠٥). والبغوي في شرح السُّنَّة (١/ ٢١٤). شرح السُّنَّة، المؤلف: مُحيي السُّنَّة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي- دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٣٤٩) برقم (٣١٩٣٧) عن الشعبي رحمه الله. ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضْله (٢/ ١١٧٧) برقم (٢٣٢٩) عن مسروق رحمه الله. الكتاب المصنَّف في الأحاديث والآثار، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥ هـ)، المحقِّق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد– الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ. جامع بيان العلم وفضْله، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

وكان السَّلف يُعلِّمون أولادهم حُبَّ أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما- كما يُعلِّمونهم السُّورة من القرآن(١).

فمن هو أبو بكر؟

إنَّه الصِّدِّيقُ خليفةُ رسول الله ﷺ، وأوَّلُ مَن آمنَ مِن الرجال.

اسمُه عبد الله، ويقال: عتيق بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: اسمُه الذي سمَّاه أهله به "عبد الله"، ولكن غلب عليه "عتيق"، وقال الليث بن سعد: لقبُه "عتيق" لأنَّ وجهه كان جميلًا، وقال ابن الأعرابي: العرب تقول للشيء قد بلغ النهاية في الجودة:" عتيق".

كان أبيض نحيفًا، خفيف العارضين، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، يخضب شيبه بالحناء والكتم، وكان أعلمَ قريشٍ بأنسابها(٢).

وُلِدَ أبو بكر- رضي الله عنه- بعد عام الفيل بسنتين وستَّة أشهر، وكان تاجرًا، وقد سافر إلى الشام في تجارته. والتجارة كانت أشرف مكاسب قريش، ولما وُلِّي أراد أن يتجر لعياله فمنعه المسلمون، وقالوا: هذا يشغلك عن مصالح المسلمين، وفرضوا له درهمين كلَّ يومٍ(٣).

وقد وُصف بالصِّدِّيق، وصفه به النبي ﷺ، وفي الحديث عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: صعد رسول الله ﷺ أُحُدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان- رضي الله عنهم جميعًا- فرجف بهم، فقال ﷺ:" اثبُتْ أُحُدُ؛ فإنَّما عليك نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهيدان" رواه البخاري(١).

---

(١) رُوي عن الإمام مالك رحمه الله في الموطأ (١/ ٢٥٥) رقم (١٠). وشرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٧/ ١٣١٣) برقم (٢٣٢٥). الموطأ، المؤلف: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، المحقِّق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية- أبو ظبي- الإمارات، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م. شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة، المؤلف: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: ٤١٨هـ)، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، الناشر: دار طيبة- السعودية، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(٢) يُنظَر: سير أعلام النبلاء (راشدون/ ٧). ويُنظَر ترجمته فيه (راشدون/ ٧-٧٠). سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : ٧٤٨ هـ)، المحقِّق: مجموعة من المحقِّقين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٣) يُنظَر: أبو بكر الصديق أفضل الصحابة، وأحقُّهم بالخِلافة (ص ١٤). أبو بكر الصديق أفضَلُ الصَّحَابة، وَأحقُّهم بالخِلافة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي (المتوفى: ١٤٢١هـ).



وهو أوَّل مَن أسلم، وكان إيمانه قوِيًا عظيمًا، يفوق كلَّ وصفٍ، ولعلَّ أصدق ما يُوصَفُ به قول النبي ﷺ:" ما دعوتُ أحدًا إلى الإسلام إلَّا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردُّد، إلَّا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم (أي: ما تباطأ) حين ذكرتُ له وما تردَّد" رواه البيهقي(٢).

وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ:" أرحمُ أُمَّتي بأُمَّتي أبو بكر" رواه الترمذي(٣).

وكان له دور كبير في تثبيت دعائم الدين الجديد، فقد كان يبذل من نفسه وماله؛ فقد أعتق سبعة ممَّن كانوا يُعذَّبون في الله؛ منهم بلال بن رباح وعامر بن فهيرة، حتَّى أنَّه أنفق ثروته التي اكتسبها من تجارته، والتي كانت تُقدَّر بنحو أربعين ألف درهم؛ أنفقها كلَّها في سبيل الله، فلمَّا هاجر إلى المدينة بعد نحو عشر سنوات؛ لم يكن معه من ذلك كلِّه غير خمسة آلاف درهم، وقد ذكر له النبي ﷺ ذلك وأثنى عليه فقال:" ما نفعني مالٌ ما نفعني مالُ أبي بكر" رواه الترمذي(٤)، وهو أوَّل من أوذي في الله؛ آذاه الكُفَّار على إيمانه حتَّى خرج من مكَّة مُهاجِرًا إلى أرض الحبشة؛ ولقيه ابن الدغنة فقال له: إنَّ مِثْلَكَ لا يَخْرُجُ ولا يُخْرَجُ.

ويختار النبي ﷺ أبا بكر- رضي الله عنه- لصحبته في هجرته، وهذا شرفٌ لا يُدانيه شرفٌ، كما قال الله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾(٥)، فقلتُ: يا رسول الله؛ لو أنَّ أحدهم رفَع قدَمه رآنا؛ فقال ﷺ:" يا أبا بكر؛ ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟!" رواه البخاري ومسلم(٦).

يقول شاعرنا الدكتور عبد الرحمن العشماوي:

قَالوا: هو الصِّدِّيقُ، قلتُ: كفاهُ ... مَا يحفظُ التاريخُ مِن ذكراهُ
يَكفي أبا بكرٍ فخارًا أنَّهُ ... في هجرةِ المختَارِ قد آخَاهُ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٩) برقم (٣٦٧٥) كتاب أصحاب النبي ﷺ. باب قول النبي ﷺ:« لو كُنتُ مُتَّخِذًا خليلًا».

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٦٤) جماع أبواب المبعث. دلائل النبوة، تأليف: الإمام البيهقي (٣٨٤- ٤٥٨هـ)، وثَّق أصوله وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: الدكتور/ عبد المعطى قلعجى، الناشر: دار الكتب العلمية- ودار الريان للتراث، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٦٦٤) برقم (٣٧٩٠) أبواب المناقب. باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأُبي، وأَبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ٢٩٠).

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٦٠٩) برقم (٣٦٦١) أبواب المناقب. باب بدون ترجمة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ١٦١).

(٥) التوبة ٤٠.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٤) برقم (٣٦٥٣) باب مناقب المهاجرين وفضْلهم. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥٤) برقم (٢٣٨١) كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم. باب مِن فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قَطعَ الجبالَ الراسياتِ مُرافِقًا لأعـزِّ خلْـقِ اللهِ حيـنَ دعَـاهُ
وَتعجَّبَتْ منهُ الرِّمالُ وقدْ مَشَى تقفو خُطى الهادي البشيرِ خُطاهُ
يَمشي أمَـامَ المصطَفَى ووراءَهُ مَشْيَ المحِبِّ تفطَّـرَتْ قدمَـاهُ[١]

قال الشيخ السعدي في تفسيره: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾أي: هو ﷺ وأبو بكر الصِّدِّيق- رضي الله عنه- ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾أي: لما هربا من مكَّة، لجآ إلى غار ثورٍ في أسفل مكَّة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب، فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقَّة، حين انتشر الأعداء من كلِّ جانبٍ يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال ﴿إِذۡ يَقُولُ﴾النبي ﷺ ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أبي بكر لما حزن واشتدَّ قلقُه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ بعونه ونصره وتأييده، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للفؤاد، ولهذا لما قلقَ صاحبُه سكَّنه وقال: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾، ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرسًا له، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ أي: الساقطة المخذولة، فإنَّ الذين كفروا قد كانوا على حَرِدٍ قادرين، في ظنِّهم على قتْلِ الرسول ﷺ وأخْذه، حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يُتِمَّ لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئًا منه[٢].

والخلاصة: أنَّه علينا أن نقرأ سيرة هؤلاء العظماء بحقٍّ، بدل هؤلاء التافهين الذين تصدَّروا المشهد، ويُطلَق عليهم ألقاب النُّجوم والأساطير، فهؤلاء الصَّحابة هم القُدوة الحقيقيَّة الذين يجب علينا أن نهتدي بهداهم، ونقتفي آثارهم.

أولئكَ آبائي فجئْني بمثلِهِمْ إذَا جمعتْنا يا جريرُ المجامِعُ[٣]

---

(١) من قصيدة للدكتور عبد الرحمن العشماوي بعنوان" أبو بكر الصديق رضي الله عنه".
https://www.aldiwan.net/poem6770.html.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٣٨).

(٣) البيت للفرزدق، من قصيدة له بعنوان "مِنَّا الذي"، وهي في ديوانه (ص ٣٦٠). ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدَّم له: الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.



٢٥ صفر

إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ

يقول ربُّنا تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾[١].

قال الشيخ السعدي في تفسيره:﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾أي: رأى كلٌّ منهما صاحبَه، ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ شاكين لموسى وحزنين ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ فـ ﴿قَالَ﴾موسى، مُثَبِّتًا لهم، ومُخبِرًا لهم بوعد ربِّه الصادق: ﴿كَلَّآۖ﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم أنَّكم مُدركون، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم، ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ فضربَه ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾اثني عشر طريقًا ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: الجبل الْعَظِيمِ، فدخله موسى وقومه[٢].

وقد جاءت لفظة المعيَّة في ثمان عشرة آية من آي الذِّكْر الحكيم، تفيد معيَّة الله سبحانه لخلْقه، ودلَّت هذه النصوص القرآنيَّة على ورودها على معنيين اثنين.

قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-: معيَّة الله عزَّ وجلَّ تنقسم إلى قسمين: عامَّة وخاصَّة، والخاصَّة تنقسم إلى قسمين: مُقيَّدة بشخصٍ، ومُقيَّدة بوصفٍ، أمَّا العامَّة فهي التي تشمل كلَّ أحدٍ من مؤمنٍ وكافرٍ، وبرٍّ وفاجرٍ، ودليلُها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾[٣]. أمَّا الخاصَّة المقيَّدة بوصف؛ فمثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾[٤]، وأمَّا الخاصَّة المقيَّدة بشخصٍ مُعيَّنٍ؛ فمثل قوله تعالى عن نبيِّه ﷺ: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[٥]، وقال تعالى لموسى وهارون- عليهما السلام-: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٦]، وهذه أخصُّ من المقيَّدة بوصفٍ، فالمعيَّة درجات: عامَّة مُطلَقة، وخاصَّة مُقيَّدة بوصفٍ،

(١) الشعراء ٦١ – ٦٦.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٩٢).

(٣) الحديد ٤.

(٤) النحل ١٢٨.

(٥) التوبة ٤٠.

(٦) طه ٤٦.



وخاصَّة مُقيَّدة بشخصٍ، فأخصُّ أنواع المعيَّة ما قُيِّد بشخصٍ، ثم ما قُيِّد بوصفٍ، ثم ما كان عامًّا، فالمعيَّة العامَّة تستلزم الإحاطة بالخَلْق علمًا وقدرة، وسمعًا وبصرًا، وسلطانًا وغير ذلك من معاني ربوبيَّته، والمعيَّة الخاصَّة بنوعَيْها تستلزم مع ذلك النصر والتأييد[١].

ولقد ذكرتُكَ والخطوبُ كوالِحٌ ... سودٌ ووجْهُ الدَّهرِ أغْبَرُ قاتِمُ

فهتفْتُ في الأسحارِ باسِمِكَ صارِخًا ... فإذا مُحيًّا كُلِّ فجرٍ باسِمُ[٢]

وإنَّ لمعيَّة الله تعالى لعبده آثارًا تعود عليه بالخير في عاجل أمره وآجله، منها ما يتعلَّق بالمعيَّة الخاصَّة، ومنها ما يتعلَّق بالمعيَّة العامَّة؛ أمَّا بالنسبة للمعيَّة العامَّة فإنَّ من أهمِّ آثارها:

١. تربية المهابة في نفوس النَّاس من هذا الإله العظيم العليم بالسِّرِّ وأخفى.

٢. الإسراع بالطاعة والإقلاع عن المعصية لإحاطة علْمه تعالى بخَلْقه.

أمَّا ما يتعلَّق بالمعيَّة الخاصَّة، فمن آثارها:

١. مَن كان الله معه فلا يغلبُه أحدٌ، فهو يتَّصل بمصدر القوَّة، وهي قوَّة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده.

٢. لا يشعر صاحب المعيَّة بوحشة؛ لأنَّ معه ربَّه يُؤنسه ويُثبِّته ويُقوِّيه.

٣. الشعور بالاطمئنان والهدوء النفسي، كما قال موسى- عليه السلام- بكلِّ ثقةٍ واعتزازٍ لما حاصره فرعون وجنوده ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[٣].

اشدُدْ يديك بحبلِ الله مُعتصِمًا ... فإنَّه الرُّكنُ إنْ خانتْكَ أركانُ

مَنْ يتَّقِ اللهَ يُحمَدْ في عواقِبِهِ ... ويكْفِه شرَّ مَن عَزُّوا ومَن هانُوا

ومَنِ استعانَ بغيرِ اللهِ في طلبٍ ... فإنَّ ناصرَهُ عجزٌ وخُذلانُ[٤]

---

(١) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (١/ ٤٠١). شرح العقيدة الواسطية، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١ هـ)، خرَّج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: السادسة، ١٤٢١هـ.

(٢) ذُكِرَ هذان البيتان في أرشيف ملتقى أهل الحديث- ٥ (٧/ ١٧٧). ولم أقف على قائلهما.

(٣) الشعراء ٦٢.

(٤) قصيدة عنوان الحكم (ص ٣٦). قصيدة عنوان الحكم، المؤلف: علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البُسْتي، أَبُو الفَتح (المتوفى: ٤٠٠هـ)، المحقِّق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.



وهناك أسبابٌ لمعيَّة الله الخاصَّة لعباده، وقد ذَكَرَهَا الله في القرآن؛ حيث إنَّه لا أحد أعلم بالله من الله، ولا أحد أدلَّ على الله من الله؛ لذلك فإنَّ هناك أوصافًا مَنِ اتَّصف بها كان الله معه؛ ومنها:

١- الإيمان: فالله سبحانه وتعالى مع أهل الإيمان به وبرسوله ﷺ وكتابه، وجميع أركان الإيمان، وكلُّ ذلك جاء عن الله ورسوله ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]، فمَن حصَّل مِن أسباب الإيمان أكثر؛ كان نصيبُه مِن معيَّة الله له بالتأييد والنصر أعلى وأوفى.

٢- التقوى: من الأمور التي رتَّب الله سبحانه وتعالى عليها معيَّته الخاصَّة؛ التقوى، وهي في معناها العام:" امتثالُ الأوامرِ واجتنابُ النَّواهي"، أو كما عرَّفها بعضُ السَّلف: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله ترجو ثوابَ الله، وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقابَ الله؛ لذلك رفع الله من شأن المتَّقين؛ فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

٣- الصبر: فالعبد مُحتاجٌ للصبر في عمل الطاعة، وترْك المعصية، وتحمُّل الأقدار المؤلمة، فكُن ممَّن ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾[٣]؛ لتنال معيَّة الله سبحانه وتعالى بصبرك على طاعة الله، وتحمُّل المشقَّة فيها، ومدافعة الشيطان والهوى والنفس التي تطلب الدعة والراحة، وأيضًا الابتعاد عن المعاصي والشهوات المحرَّمة، والله يُخبرُنا بالمكافأة على ذلك بقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤]، وإذا كان الله معك فأنت في خيرٍ، ومردُّك إلى خيرٍ.

٤- الإحسان: أخبر الله في كتابه في خواتيم سورة النحل عن معيَّته لفريقين؛ حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[٥]، فبإحسانك في عبادتك، وإحسانك إلى غيرك؛ يكون الله معك، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ:"واللهُ في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه" رواه مسلم[٦]، وقوله ﷺ أيضًا:" أحبُّ النَّاسِ إلى الله أنفعُهم للنَّاس" أخرجه الطبراني[٧]؛ فمَن جمَعَ هذين المقامين: الإحسان في عبادة الخالق، والتعامل مع المخلوق؛ فلْيُبشَّرْ بمعيَّة الله له بالنصر والتأييد والتوفيق في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٨].

---

(١) الأنفال ١٩.

(٢) البقرة ١٩٤.

(٣) الرعد ٢٢.

(٤) الأنفال ٤٦.

(٥) النحل ١٢٨.

(٦) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٤) برقم (٢٦٩٩) كتاب الذِّكْر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل الاجتماع على تلاوة القرآن.

(٧) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ١٤٠) برقم (٦٠٢٦). والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٧٤).

(٨) الزمر ٣٤.

والخلاصة: أيُّها المسلم؛ لا تحرم نفسك من الأخْذ بأسباب معيَّة الله؛ فالله تعالى يُعطي على القليل كثيرًا، ويُجازي عباده من حيث لا يحتسبون، ويُضاعِف لهم الأجر؛ فقد قال الله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1].

---

(١) فاطر ٣٠.



٢٦ صفر

يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا

بعث الله تعالى نوحًا– عليه السلام– إلى قومه بعد أن عبدوا أصنامًا كانت لرجالٍ صالحين منهم؛ تخليدًا لذكراهم بعد مماتهم، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾(١)، فبعث الله فيهم نوحًا نبيًّا ورسولًا.

بدأ نوح– عليه السلام– بعثته بدعوة قومه إلى الإيمان بالله والتوحيد وإفراد العبادة لله تعالى وحده، وذكر لهم فائدة اتِّباع أمره، وطاعته في غفران ذنوبهم، قال تعالى على لسان نبيِّه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾(٢)، وترك معاقبتهم، وإمهالهم إن هم آمنوا بالله ورسوله إلى أن يحين أجلُهم الذي كتبه الله لهم، قال تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(٣).

وقد دعا نوح– عليه السلام– قومَه باستخدام شتّى الأساليب؛ حتَّى يؤمنوا بالله تعالى، قال عزَّ وجلَّ على لسان نبيِّه الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾(٤) وفي هذه الآية وصفٌ لحال قوم نوح– عليه السلام– حينما كان يدعوهم نبيُّهم إلى الإيمان؛ حيث كانوا يَفِرُّون منه، ويجعلون أصابعهم في آذانهم؛ كي لا يسمعوا كلامه، كما أنَّهم كانوا يتغطُّون بثيابهم، مُصِرِّين على جحودهم، ومُستكبِرين في عنادهم. دعا نوح– عليه السلام– قومه سِرًّا فيما بينه وبينهم، كما دعاهم عَلَنًا بصوتٍ مرتفعٍ، وأمرهم باستغفار الله تعالى، وذكَّرهم بعاقبة التائبين المستغفِرين حينما يرسلُ الله عليهم السماءَ مُتتابِعةً بالرزق الوفير، ويُمِدُّهم بالأموال والبنين، ويُصيِّرُ أرضَهم جنَّاتٍ وأنهارًا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾(٥).

ثم ذكَّر نوح– عليه السلام– قومَه بعظمة الله تعالى التي تتجلَّى في خَلْق الإنسان أطوارًا؛ حيث يبتدِئُ خَلْقَه نُطفةً، ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم يخلق الله العظام، ويكسوها اللحمَ، وقد قابل قوم نوح–

---

(١) نوح ٢٣.

(٢) نوح ٤.

(٣) نوح ٤.

(٤) نوح ٥-٧.

(٥) نوح ٨-١١.

عليه السلام- دعوته بالعصيان والمخالفة والإصرار على ما فيهم من الجحود والضلالة ومَكروا لنبيِّهم مكرًا عظيمًا.

وحينما استيأس نوح- عليه السلام- من دعوة قومه؛ دعا عليهم، ومن دعائه ما جاء في قوله تعالى على لسان نوح- عليه السلام-: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾[١]؛ أيْ أنْ يطبع الله على قلوبهم بضلالهم فلا يهتدوا إلى الحقِّ، ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٢]؛ أي ربِّ لا تترك الكافرين على هذه الأرض؛ لأنَّهم إن تُرِكوا أضلُّوا النَّاس عن سبيل الحقِّ والهُدى، ولا يلدون إلَّا الذي لا يؤمن بدينك، ويجحد نعمتك.

ثم أكَّدت قصَّة نوح- عليه السلام- على أنَّ النَّسب والقرابة والرابطة الزوجيَّة لا تشفع لصاحبها إذا أصرَّ على الكفر بالله تعالى والصَّدِّ عن سبيله؛ فقد ضرب الله جلَّ وعلا في كتابه العزيز مَثلًا للذين كفروا، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[٣]. إذ كانت كلٌّ من امرأة نوح وامرأة لوط في عصمة نبيَّين صالحَين من عباد الله، وكانت زوجة نوح- عليه السلام- تُعين قومها على زوجها؛ حين كانت تتَّهمه بالجنون، إلى جانب أنَّها لم تؤمن بدعوته؛ فكان ذلك الأمرُ بمثابة خيانة لزوجها؛ ولذلك استحقَّت تلك المرأةُ العذابَ من عند الله تعالى مع مَن كَفر من قوم نوح، ولم تنفعْها رابطة الزوجيَّة مع رجلٍ كانت مكانته عالية عند ربِّه في دَفْع العذاب عنها؛ فكلُ إنسانٍ مسؤولٌ أمام ربِّه عن نفسه.

أوحى الله إلى نوح- عليه السلام- أن يصنعَ سفينة مصنوعة من الأخشاب، قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾[٤]؛ وبدأ نوح- عليه السلام- في صناعة السفينة بأمْرِ الله تعالى له؛ حيث جلب الأخشاب، وصَنع من مادَّتِها الألواح، ثم وضَع الألواح بجانب بعضها، وثبَّتها بالدُّسُر أي المسامير، وكان قومُه كُلَّما مَرُّوا عليه يسخرون منه؛ لِصُنْعِه السفينة على اليابسة، قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا

---

(١) نوح ٢٤.

(٢) نوح ٢٦- ٢٧.

(٣) التحريم ١٠.

(٤) القمر ١٣.

تَسۡخَرُونَ﴾[١].حتَّى إذا جاء أمْرُ الله، وفارَ التَّنُّورُ الذي كان مصنوعًا من حجارة، عِلْمًا أنَّ الله سبحانه جَعَلَ فوران الماء منه علامةً على مجيء أمْره، وقد أمَرَ اللهُ نوحًا– عليه السلام– أن يحمل على السفينة من كلِّ شيءٍ حيٍّ زوجَينِ؛ ذكرًا وأنثى. ثم أبحرتْ سفينة نوح– عليه السلام– بهم عبر المياه المرتفعة، تدفعها الريح الشديدة التي تُشبه الجبال في عُلوِّها وعَظَمَتِها، فقد رُوِي عن ابن كثيرٍ أنَّ طول الماء بلغ خمسة عشر ذراعًا، بينما ورد في رواية أخرى: أنَّه بلغَ ثمانين ذراعًا[٢].

ونهى الله سبحانه وتعالى نوحًا– عليه السلام– أن يتشفَّع للكافرين مهما كانت صلة القرابة به ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾[٣].

ثم حدث أنْ رأى نوح– عليه السلام– ولده يغرق، وظنَّ أنَّه من المؤمنين؛ حيث لم يُصرِّحْ له بالكُفر، فدعاه إلى الركوب فى السفينة ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٤]، لذا قال: ولا تكن مع الكافرين، ولم يقل: مِن الكافرين. لأنَّه لو علم بكُفره ما ناداه للركوب. وكان ردُّ ولدِه غيرَ صريحٍ فى إعلان الكُفر، بل فيه اعتماد على نفسه وقُوَّته وحيلته التى يمكن أن ينجو بها من الغرق ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي﴾ فردَّ عليه أبوه ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ وكانت النتيجة أن حال بينهما الموج فكان من المغرَقين. وشاء الله أن يغرق الابن بعيدًا عن عين الأب، رحمةً منه سبحانه وتعالى بالأب كي لا يشاهد مصرع ابنه.

ولعدم علْمِ نوحٍ– عليه السلام– يقينًا بكُفْرِ ولده؛ سأل ربَّه مُستوضِحًا: لماذا أُغرِقَ؟ فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾[٥]، فردَّ الله عليه بأنَّه ليس من أهله المؤمنين فى الحقيقة.

وإن كان يبدو له أنَّه مُؤمنٌ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[٦]، والمعنى أنَّ القرابة المنجِّية من العذاب هى قرابة الإيمان لا قرابة النَّسَب، وكان عليك أن تتحرَّى حال ولدك وهو يعيش معك أو قريبًا منك لتتأكَّد من

(١) هود ٣٨.
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٣) .
(٣) هود ٣٧.
(٤) هود ٤٢.
(٥) هود ٤٥.
(٦) هود ٤٦.

إيمانه، فإنَّ مقامك غير مقام عامَّة النَّاس، وليس قوله له: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ وصفًا له بأنَّه جاهلٌ والعياذ بالله، بل تحذير له أن يكون في المستقبَل جاهلًا، كما قال الله تعالى لسيِّدنا محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[١]، وقوله ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[٢]، فلم يكن النبي ﷺ جاهِلًا ولا مُشْرِكًا حين خاطبه الله بذلك، وعلى هذا كان نوحٌ- عليه السلام- بريئًا ممَّا يُخالِف عصمة الأنبياء.

إِنِّي بَرِئتُ مِنَ الأصنامِ قاطبةً وآمنتُ باللهِ الذي هو غالبُ[٣]

---

(١) الأنعام ٣٥.

(٢) القصص ١٨٧.

(٣) يُنسَبُ هذا البيت لأبي ذَرٍّ رضي الله عنه. يُنظَر: شرح البخاري للسفيري= المجالس الوعظيَّة في شرح أحاديث خير البريَّة (٢/ ٤٤). المجالس الوعظيَّة في شرح أحاديث خير البريَّة ﷺ من صحيح الإمام البخاري، المؤلف: شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد السفيري الشافعي (المتوفى: ٩٥٦هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: أحمد فتحي عبد الرحمن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.



٢٧ صفر

مطهرةٌ للفم مرضاةٌ للربِّ

لقد جمعت الشريعة الإسلامية من كلِّ شيءٍ أحسنه، وَحَوَتْ من الآداب والشمائل ما لم يجتمع في غيرها من الشرائع، وإنَّ من محاسن الشريعة الإسلامية؛ اعتناءها بنظافة الفرد المسلم باطنًا وظاهرًا، والتأكيد على كلِّ ما يجعل مظهره مثاليًّا، ومن مظاهر هذا الاعتناء؛ الأمْرُ بسُنن الفطرة كالسِّواك حيث أوصى النبي ﷺ بالمداومة عليه.

فالسِّواك من محاسن الشرع الكريم، وهو استعمالُ عودٍ أو نحوه في نظافة الأسنان، لإذهاب التغيُّر ونحوه، وله فوائد دينيَّة وصحيَّة، وهو خصلة من خصال الفطرة، واظب عليه النبي ﷺ ورغَّب فيه، ويتأكَّد استعماله عند الوضوء، وعند الصلاة، وعند القيام من النَّوم، وعند دخول المنزل، وعند تغيُّر الفم واصفرار الأسنان، وهو سُنَّةٌ في كلِّ وقتٍ وعلى كلِّ حالٍ، حتَّى للصائم قبل الزوال وبعده، لعموم النُّصوص الواردة في الحثِّ عليه من غير تخصيص وقتٍ دون آخر، ويجوز أيضًا بحضرة النَّاس وفي المساجد، لأنَّه ﷺ فَعَلَه ولم يختفِ به، وأفضل آلةٍ للسِّواك هي الأراك، لما فيه من طيبٍ وريحٍ وتشعيرٍ يُخرِج بقايا الأطعمة ونحوها، ويُنقِّي ما بين الأسنان، شهد لذلك علماءُ الطِّبِّ بعد أن أجرَوا عليه بُحوثًا أثبتتْ ذلك، واستعمال الفرشاة والمعجون من السِّواك، وهو يقوم مقام السِّواك في التنظيف وإزالة الرائحة والبخر.

وكيفيَّة الاستياك أن يمُرَّ السِّواك عرضًا في ظاهر الأسنان وباطنها، ويمُرَّ به المسلم أيضًا على أطراف أسنانه وكراسيِّ أضراسه وسقْف حلْقه.

والسِّواكُ مَندوبٌ إليه، وهو مِن سُنَنِ الفِطرةِ، وهذا باتِّفاقِ المذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشَّافعيَّة، والحنابلة، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك.

فعن أبي هُرَيرةَ- رَضِيَ اللهُ عنه- أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال:" لولا أن أشُقَّ على أمَّتي- أو على النَّاس- لأمَرتُهم بالسِّواكِ مع كلِّ صلاةٍ" رواه البخاري[١]، وفي روايةٍ:" ومع كلِّ وُضوءٍ"[٢] فلو كان السِّواكُ واجبًا لأمرَهم ﷺ به شقَّ أو لم يشُقَّ.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٤) برقم (٨٨٧) كتاب الجمعة. باب السِّواك يوم الجمعة.

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٦/ ٢٢) برقم (٩٩٢٨). والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٩٤٠). صحيح الجامع الصغير وزياداته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي.

وعن عائشةَ- رَضِيَ اللهُ عنها-:" أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا دخَلَ بَيتَه بدأ بالسِّواكِ" رواه مسلم[١].

وعن عائشةَ- رَضِيَ اللهُ عنها- أيضًا قالت: قال رسولُ الله ﷺ:" عَشْرٌ مِن الفِطرة: منها السِّواك" رواه مسلم[٢].

وأفضلُ ما يُستاكُ به العُودُ، فقد كان عبدُ اللهِ بن مسعود- رَضِيَ اللهُ عنه- يجتني سِواكًا من الأراكِ، وكان دقيقَ السَّاقينِ فجعَلَت الرِّيحُ تَكفَؤُه، فضَحِكَ القَومُ منه، فقال رَسولُ اللهِ ﷺ: مِمَّ تَضحكونَ؟! قالوا: يا نبيَّ اللهِ؛ مِن دِقَّةِ ساقَيه، فقال:" والذي نَفسي بِيَدِه؛ لَهُما أثقَلُ في الميزانِ مِن أُحُدٍ" رواه أحمد[٣].

وعن عائشةَ- رَضِيَ اللهُ عنها- قالتْ:" تُوفِّيَ النبيُّ ﷺ في بَيتي وفي يومِي، وبينَ سَحْري ونَحْري، وكانت إحدانا تُعَوِّذُهُ بدُعاءٍ إذا مَرِضَ، فذهبتُ أُعَوِّذُهُ، فرَفَع رأسَه إلى السَّماءِ، وقال: في الرَّفيقِ الأعْلَى، في الرَّفيقِ الأعْلَى، ومرَّ عبدُ الرَّحمنِ بنُ أبي بكرٍ، وفي يدِهِ جَريدَةٌ رَطْبةٌ، فنظرَ إليه النبيُّ ﷺ، فظَنَنْتُ أنَّ له بها حاجةً، فأخذتُها، فمضَغْتُ رأسَها، ونَفَضْتُها، فدفَعْتُها إليه، فاسْتَنَّ بها كأحسَنِ ما كان مُسْتَنًّا، ثم ناوَلَنِيها، فسقطتْ يدُهُ، أو: سقطتْ مِن يدِهِ، فجمعَ اللهُ بين رِيقي وريقهِ في آخرِ يومٍ مِنَ الدُّنيا وأوَّلِ يومٍ مِنَ الآخِرةِ" رواه البخاري[٤].

ويُستَحَبُّ السِّواكُ عند كلِّ صلاةٍ وعند كلِّ وضوءٍ، وعند الاستيقاظ من النَّوم، وعند قراءة القرآن، وقد ورد عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال:" إنَّ أفواهكم طُرُقٌ للقرآن، فطيِّبوها بالسِّواك" رواه ابن ماجه[٥]، ولو كان خارج الصلاة، وألحقَ العلماءُ بهذا عند قراءة الحديث، أو حضور مجالس العلْم، وذِكْرِ الله عمومًا، قال بعضهم: يُندَبُ أن يُزيل قلح الفم، ووسخ الأسنان بالسِّواك لذِكْرِ الله تعالى، والملائكةُ تحضر مجالس العلْم، والملائكةُ تتأذَّى ممَّا يتأذَّى منه بنو آدم، فإذا كانوا يحضرون مجالس العلْم؛ فإنَّ السِّواك من آداب مجالس العلْم، ولأنَّ الملائكةَ يحضرون الميت، قالوا: لو تسنَّى للمُحتَضِر أن يستاك فلْيستكْ، وقد ورد أنَّ النبي ﷺ تسوَّك قُبيل موته، فقالوا: إذا تمكَّن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٢٠) برقم (٢٥٣) كتاب الطَّهارة. باب السِّواك.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٢٣) برقم (٢٦١) كتاب الطَّهارة. باب خِصال الفطرة.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٧/ ٩٨) برقم (٣٩٩١). والحديث حسَّنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/ ٥٨٢).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٣) برقم (٤٤٤٩) كتاب المغازي. باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٥) رواه ابن ماجه في سُننه (١/ ١٠٦) برقم (٢٩١) كتاب الطَّهارة وسُننها. باب السِّواك. والأثر صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (١/ ٣٦٣).



المحتَضِرُ من الاستياك، أو أشار أن يُعطوه سِواكًا فلْيُعطوه سِواكًا قبل الموت، فالملائكة تحضر، حتَّى قالوا: إنَّه يُسهِّل خروج الروح، ونحو ذلك، والله أعلم بهذا، وهو من أمور الغيب، لكنَّ النبي ﷺ ثبتَ أنَّه استاك وهو يَحتضِر، ويُستَحَبُّ كذلك الاستياكُ عند قيام الليل، ويُستَحَبُّ أيضًا لمجامع النَّاس، خصوصًا إذا كان قادمًا من سفر، وهناك مُعانَقة، أو يُسلِّم على عالِمٍ- مثلًا-، ويقترب منه، ويضع وجهه مُقابِل وجهه، أو سائل يُسِرُّ إلى عالِمٍ بشيءٍ، أو نحو ذلك، وكذلك عند الذهاب إلى المسجد؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾(١)، وهذا من تمام الزينة، والمسجد- أصلًا- فيه اجتماع الملائكة واجتماع النَّاس، وتطييب الرائحة فيه مُؤكَّد، وقالوا أيضًا: إنَّ السِّواك مُستَحَبٌّ للالتقاء بالأهل، وله دليلٌ قوِيٌّ، وهو حديثُ النبي ﷺ:" كان إذا دخل بيته بدأ بالسِّواك" رواه مسلم(٢)، ولذلك قالوا: حتَّى عند الجماع؛ لأنَّ فيه ملامسة الرجل المرأة والاقتراب منها، ولعموم حديث:" السِّواك مطهرةٌ للفم، مرضاةٌ للرَّبِّ" رواه النسائي(٣)، فمعناه: أنَّه يُمكِن أن يُستعمَل السِّواكُ في أيِّ وقتٍ من ليلٍ أو نهارٍ.

وقال ابن العثيمين- رحمه الله-: والسِّواك ذَكَرَ النبي ﷺ فيه فائدتَينِ عظيمتَينِ كما في حديث عائشة- رضي الله عنها- أنَّ النبي ﷺ قال:" السِّواك مطهرةُ للفم مرضاةٌ للرَّبِّ" رواه النسائي.

(مطهرةٌ للفم) يعني: يُطهِّر الفم من الأوساخ والأنتان وغير ذلك ممَّا يضرُّ، وقوله (للفم) يشمل كلَّ الفمِ؛ الأسنان واللثة واللِّسان، كما في حديث أبي موسى- رضي الله عنه- أنَّه دخل على النبي ﷺ وطرف السِّواك على لسانه(٤)، والفائدة الثانية (مرضاةٌ للرَّبِّ) أي أنَّه من أسباب رضا الله عن العبد(٥).

والخلاصة: كما قال ابن القيِّم- رحمه الله-: في السِّواك عدَّة منافع: يُطيِّب الفم، ويشدُّ اللثة، ويقطع البلغم، ويجلو البصر، ويذهب بالحفر، ويصحُّ المعدة، ويُصفِّي الصوت، ويُعين على هضم

---

(١) الأعراف ٣١.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٢٠) برقم (٢٥٤) كتاب الطِّهارة. باب السِّواك.

(٣) رواه النسائي في السُنن الكبرى (١/ ٧٥) برقم (٤) كتاب الطَّهارة. الترغيب في السِّواك. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن النسائي (١/ ١٤٩).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٢٠) برقم (٢٥٤) كتاب الطَّهارة. باب السِّواك.

(٥) شرح رياض الصالحين (٥/ ٢٢٦).

الطعام، ويُسهِّل مجاري الكلام، ويُنشِّط للقراءة والذِّكْر والصلاة، ويطرد النَّوم، ويُرضِي الرَّبَّ، ويُعجب الملائكة، ويُكثِر الحسنات[1].

وكان- ولا زال- الصالحون يتهادون السِّواك، وقد بعثَ بعضُهم إلى أخٍ له سِواكًا، وكتبَ إليهِ:

جَعلتُ هديّتي لكمُ سِوَاكَا ولـــمْ أُوثِرْ بهِ أحداً سِوَاكَا

بَعثتُ إليكَ عُودًا مِنْ أراكٍ رَجاءَ أنْ تعودَ وأَنْ أرَاكَا[2]

(١) زاد المعاد في هدْي خير العباد (٤/ ٢٩٦). زاد المعاد في هدْي خير العباد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيِّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت- مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

(٢) لم أقف على قائلها.

٢٨ صفر

صَلَاة البَرْدَينِ

إنَّ أهم ما يُميِّز فريضة الصلاة أنَّها كُتبت على المسلمين ليلة أُسري بالنبيّ ﷺ إلى السَّماء في رحلة المعراج، فهي أهمُّ الفرائضِ وأوجبُ العباداتِ، وشاء الله أن تكون الصلواتُ المكتوباتُ خمسَ صلواتٍ في اليوم والليلة، وقد وعد الله تعالى المحافِظين على أدائها بالجنَّة؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾[1]، وتوعَّد الذين يُفرّطون فيها ويتقاعسون عن إقامتها بالخسران يوم القيامة؛ حيث قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[2].

ومن الصلوات المفروضة ما يُعرَفُ بصلاة البَرْدَينِ، والبَرْدَانِ في اللغة: اسمٌ مُثنًّى من الفعل بَرَدَ، يقال: طَقْسٌ به بُرودةٌ، فالبرودة: نقيضٌ للحرارة، ومن استخدامات المصطلح عند العرب قولُهم: أذاقَكَ اللهُ البَرْدَينِ، أي: الغنى والعافية، والبَرْدَانِ هما: الظِّلُّ والفيء.

والبَرْدَانِ في الاصطلاح الشرعي: مُثنًّى بَرْد، بفتح الباء وتسكين الراء، وهما صلاة الصُّبح وصلاة العصر، وفي هذا يقول النبي ﷺ:" مَن صلَّى البَرْدَينِ دخلَ الجنَّة" رواه البخاري ومسلم[3]؛ وذلك لأنَّهما يقعان في زمانَينِ يشتركان فيه في الإبراد، فتقع صلاة الفجر في أبردِ ما يكون من اللَّيل، وتقع صلاة العصر في أبردِ ما يكون من النَّهار بعد زوال الشمس، وقال الخطابي: لأنَّهما يُصلَّيَانِ في بَرْدَي النَّهار، أي: طرفَيْه، حيث يطيب فيهما الهواء، وتذهب عنهما سَوْرَةُ الحَرِّ[4].

لقد جعل الله تعالى للصلاة أوقاتًا مُحدَّدة شرعًا يجب أن تُؤدَّى فيها؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[5]، والصلاة إذا أُدِّيتْ في وقتها تُسمَّى أداءً، وإن صلاها العبد بعد خروج وقتها سُمِّيتْ قضاءً، وأوقات الأداء عند الفقهاء هي أوقات الجواز أو التوسعة، والأوقات التي تصِحُّ فيها صلاتا الفجر والعصر أداءً لا قضاء كالآتي:

---

(١) المعارج ٣٤ – ٣٥.

(٢) مريم ٥٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١١٩) برقم (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة. باب فضْل صلاة الفجر. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٤٠) برقم (٦٣٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب فضْل صلاتَيِ الصبح والعصر.

(٤) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١/ ٤٤٨). أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري)، المؤلف: أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨ هـ)، المحقِّق: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، الناشر: جامعة أُمِّ القُرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ– ١٩٨٨م.

(٥) النساء ١٠٣.



وقت صلاة الفجر: وسُمِّيتْ باسم وقتها من اليوم، لِتَفَجُّرِ النُّورِ بعدها، وتُسمَّى أيضًا صلاة الصُّبح، وأوَّل وقتها طلوع الفجر الصادق، ويُقصَد به: البياض المستطير حين ينتشر في الأُفُق، أمَّا آخر وقتِ صلاة الفجر فيكون بطلوع الشمس؛ لقول النبي ﷺ:" ووقتُ صلاةِ الصُّبحِ مِن طُلوعِ الفَجرِ؛ ما لَم تَطلُعِ الشَّمسُ، فإذا طَلَعتِ الشَّمسُ فأمسِكْ عن الصَّلَاةِ؛ فإنَّها تَطلُعُ بين قرنَيْ شَيطَانٍ" رواه مسلم(١).

ووقت صلاة العصر: واسمها مأخوذٌ من طرف النَّهار؛ فالعرب تُسمِّي كُلَّ طرفٍ من النَّهار عصرًا، وقيل: من العشيّ، فالعشِيُّ يُسمَّى في اللغة عصرًا، وأوَّل وقتها: إذا كان ظِلُّ كُلِّ شيءٍ مثلَه، ودليله حديث جبريل- عليه السلام- للنبي ﷺ عن أوَّل أوقات الصلوات، وفيه:" ثم جاء العصرُ فقال، قُمْ فَصَلِّه؛ فصلَّى العصرَ حينَ صار ظِلُّ كُلِّ شيءٍ مثلَه" رواه أبو داود والترمذي(٢)، وأمَّا آخِر وقت العصر فيكون بغروب الشمس؛ فقد جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" ومَن أدرَك ركعةً مِن العصرِ قبْلَ أنْ تغرُبَ الشَّمسُ فقد أدرَك العصرَ" رواه البخاري ومسلم(٣).

وقد جاء في فضْل هاتَينِ الصلاتَينِ أحاديث تدلُّ على أنَّهما من القدْر والفضْل بمكانٍ؛ حيث تشهدُهما الملائكة، وتتعاقب في أوقاتهما، ويشهدان لأهل هاتَينِ الصلاتَينِ أمام ربِّ العِزَّة؛ فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله ﷺ قال:" يتعاقبون فيكم ملائكة باللَّيل وملائكة بالنَّهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصلُّون، وأتيناهم وهم يُصلُّون" رواه البخاري ومسلم(٤).

ومُحافَظة المسلم على هاتَينِ الصلاتَينِ سببٌ من أسباب دخول الجنَّة؛ فعن أبي موسى- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" مَن صلَّى البَرْدَينِ دخلَ الجنَّة" رواه البخاري ومسلم(٥).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٤٢٧) برقم (٦١٢) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب أوقات الصلوات الخمس.

(٢) رواه أبو داود في سُننه (١/ ١٠٧) برقم (٣٩٣) كتاب الصلاة. باب في المواقيت. الترمذي في جامعه (١/ ٢٧٩) برقم (١٤٩) أبواب الصلاة. باب ما جاء في مواقيت الصلاة عن النبي ﷺ. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح". كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (١/ ١٤٩).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٢٠) برقم (٥٧٩) كتاب مواقيت الصلاة. باب مَن أدرك مِن الفجر ركعة. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٢٤) برقم (٦٠٨) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب مَن أدرك ركعة مِن الصلاة فقد أدرك تلك الصلاة.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١١٥) برقم (٥٥٥) كتاب مواقيت الصلاة. باب فضْل صلاة العصر. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٣٩) برقم (٦٣٢) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب فضْل صلاتَيِ الصُّبح والعصر.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١١٩) برقم (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة. باب فضْل صلاة الفجر. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٤٠) برقم (٦٣٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب فضْل صلاتَيِ الصُّبح والعصر.

وقد اختصَّ الله عزَّ وجلَّ وقت هاتَينِ الصلاتَينِ في الآخرة رِزقًا لأهل الجنَّة؛ فقال تعالى ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾[١].

كما جاءت البشرى للمؤمنين على لسان النبي ﷺ بالتلذُّذ بالنظر إلى وجه الله ذي الجلال والإكرام يوم القيامة مقرونًا بالحثِّ على أداء هاتَينِ الصلاتَينِ، فقد ثبت في الصحيح قولُه ﷺ:" إنَّكم سترون ربَّكم كما تروْن هذا القمرَ، لا تُضامُون في رؤيتِه، فإنِ استطعتم أن لا تُغلَبوا على صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ، وصلاةٍ قبل غروبِ الشمسِ؛ فافعلوا" رواه البخاري ومسلم[٢].

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٣].

قال الشيخ السعدي: يأمرُ تعالى بإقامة الصلاة كاملة، ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أوَّله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر وصلاتا الظهر والعصر ﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ ويدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الليل، فإنَّها ممَّا تُزلِفُ العبدَ، وتُقرِّبُه إلى الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: فهذه الصلواتُ الخمسُ- وما أُلحِقَ بها من التطوُّعات- من أكبر الحسنات، وهي مع أنَّها حسنات تُقرِّب إلى الله، وتُوجب الثواب؛ فإنَّها تُذهِب السَّيِّئات وتمحوها، والمراد بذلك الصغائر، كما قيَّدتها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ مثل قوله:" الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكفِّراتٌ لما بينهُنَّ ما اجتُنِبَتِ الكبائر" رواه مسلم[٤]، بل كما قيَّدتْها الآية التي في سورة النِّساء، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾[٥][٦].

وقال الشيخ ابن باز- رحمه الله-: فالبَرْدَانِ هما صلاة العصر وصلاة الفجر، فينبغي أن يُخَصَّا بمزيدِ عنايةٍ؛ الفجر ينام الكثير عنها، والعصر قد يُشغَل النَّاسُ عنها برجوعهم من أعمالهم؛ فالمحافَظة عليهما والعناية بهما من دلائل كمال الإيمان، والواجب على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ المحافَظة على الصلوات الخمس في أوقاتها[٧].

---

(١) مريم ٦٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١١٥) برقم (٥٥٤) كتاب مواقيت الصلاة. باب فضْل صلاة العصر. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٣٩) برقم (٦٣٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب فضْل صلاتَيِ الصُّبح والعصر.

(٣) هود ١١٤- ١١٥.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٠٩) برقم (٢٣٣) كتاب الطهارة. باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مُكفِّراتٌ لما بينهُنَّ ما اجتُنِبَتِ الكبائر.

(٥) النساء ٣١.

(٦) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٩١).

(٧) لم أقف على نص كلام الشيخ هذا، لكنَّه ذُكِرَ بهذا المعنى ضمن فتاواه على أسئلة برنامج نور على الدرب كما في موقع رحمه الله تعالى. السِّرُّ في اقتران رؤية الله بصلاتَيِ الفجر والعصر(binbaz.org.sa) .

والخلاصة: ضرورة التأكيد على المحافَظة على هاتَينِ الصلاتَينِ، كما قال سبحانه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[1]، ومَن حافَظَ على هاتَيْنِ الصلاتَينِ سيُحافِظ على غيرهما؛ لأنَّ الأُولى تكون بعد النَّومِ والنَّفْسُ تتراخى عن القيام إليها، فمَن قام وأدَّاها في وقتها الضيِّق خشيةَ أن تفوته؛ دلَّ ذلك على عِنايته بالصلاة وعدم تهاونه فيها، وكذلك الثانية تُؤدَّى بعد جهدٍ كبيرٍ طول النَّهار، وقد يكون طلب الراحة من العمل داعيًا إلى إهمالها، فمَن حافظَ عليها كانتْ مُحافَظَتُه على غَيْرِها أيسرَ، ففي صحيح مسلم:" لن يلجَ النَّارَ أحدٌ صلَّى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، يعني الفجر والعصر" رواه مسلم[2].

(١) البقرة ٢٣٨.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٤٤٠) برقم (٦٣٤) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب فضْل صلاتَيِ الصُّبح والعصر.



٢٩صفر

قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيْلًا

لقد أثنى الله على أهل القيام، ورغَّب في هذه العبادة العظيمة؛ فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾[2]، وقال أيضًا: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾[3]، وقال كذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾[4].

قيامُ اللَّيلِ عُبوديَّةٌ وشُكْرٌ؛ فعن عائشةَ- رَضِيَ اللهُ عَنْها- أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقومُ من اللَّيل حتَّى تَتفطَّرَ قدماه، فقالت عائشةُ- رَضِيَ اللهُ عَنْها-: لِمَ تَصنعُ هذا يا رسولَ اللهِ، وقد غفر اللهُ لك ما تقدَّمَ مِن ذنبِك وما تأخَّر؟! قال:" أفلا أُحِبُّ أن أكونَ عبدًا شكُورًا" رواه البخاري[5].

وقيامُ اللَّيلِ من أسبابِ دُخولِ الجَنَّةِ ورفْعِ الدَّرجاتِ فيها؛ فعن عبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْه- قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ:" يا أيُّها الناسُ؛ أفْشُوا السَّلام، وأطْعِموا الطَّعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا باللَّيلِ والنَّاسُ نِيام، تَدخلوا الجَنَّةَ بسَلام" رواه الترمذي وابن ماجه[6].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بن العاص- رَضِيَ اللهُ عَنْهما- عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا" فَقَالَ أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ- رَضِيَ اللهُ عَنْه-: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:" لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ قَائِمًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ" رواه أحمد والترمذي[7].

وقيامُ اللَّيلِ من أسبابِ تَكفيرِ السَّيِّئاتِ؛ فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ- رَضِيَ اللهُ عَنْه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال:" عَليكُم بقِيامِ اللَّيلِ؛ فإنَّه دَأَبُ الصَّالحينَ قَبلَكم، وقُرْبةٌ إلى ربِّكم، ومَكْفَرَةٌ للسَّيِّئاتِ، ومَنْهَاةٌ عن الإثمِ"، وفي رواية أخرى زاد فيها:" ومطردةٌ للدَّاءِ عن الجسدِ" رواه الترمذي[8].

---

(١) الإسراء ٧٩.

(٢) السجدة ١٦.

(٣) الذاريات ١٧.

(٤) الفرقان ٦٤.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٣٥) برقم (٤٨٣٧) كتاب تفسير القرآن. باب {ليغفر لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ويُتِمَّ نعمته عليك ويهديَك صراطًا مُستقيمًا} الفتح: ٢.

(٦) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٥٢) برقم (٢٤٨٥) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ. باب بدون ترجمة. وابن ماجه في سُننه (١/ ٤٢٣) برقم (١٣٣٤) كتاب إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها. باب ما جاء في قيام الليل. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (٣/ ٣٣٤).

(٧) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٤٤٩) برقم (١٣٣٨). والترمذي في جامعه سُنن الترمذي (٤/ ٣٥٤) برقم (١٩٨٤) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في قول المعروف. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٤/ ٤٨٤).

(٨) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٥٢) برقم (٣٥٤٩) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني من حديث أبي أمامة كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ٤٩).

وقيامُ اللَّيلِ أفضَلُ الصلاةِ بعدَ الفريضةِ؛ فعن أَبِي هُرَيرَة- رَضِيَ اللهُ عَنْه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال:" أفضلُ الصَّلاةِ بعدَ الصلاةِ المكتوبةِ؛ الصلاةُ في جَوفِ اللَّيلِ" رواه مسلم(١).

وقراءة القرآن في قيام الليل غنيمة عظيمة؛ لحديث عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:" مَن قام بعَشْرِ آياتٍ لم يُكتَبْ من الغافلين، ومَن قام بمائةِ آيةٍ كُتِبَ من القانتين، ومَن قام بألفِ آيةٍ كُتِبَ مِن المقنطِرين" رواه أبو داود(٢).

وقيامُ الليلِ شرفُ المؤمنِ؛ ففي الحديث عن سهل بن سعد- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله ﷺ قال:" واعلمْ أنَّ شرفَ المؤمنِ قيامُه باللَّيل، وعزَّه استغناؤه عن النَّاس" رواه الحاكم(٣).

ولقيام اللَّيل آدابٌ ينبغي أن يتأدَّب بها كُلُّ مُسلِمٍ:

١- أن ينوي عند نومه قيام اللَّيل، وينوي بنومه التَّقوِّي على الطاعة؛ ليحصل على الثَّواب على نومه، لحديث أبي الدرداء- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" مَن أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يُصلِّي من اللَّيل فغلبَتْهُ عيناه حتَّى أصبح، كُتِبَ له ما نوى، وكان نومُهُ صدقةً عليه مِن ربِّه عزَّ وجلَّ" رواه النَّسائي(٤).

٢- أن يمسحَ النَّوم عن وجهه عند الاستيقاظ، ويذكرَ الله، ويشوصَ فاه بالسِّواك، ويقولَ كما في حديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنَّه قال: مَن تعارَّ من اللَّيل فقال:" لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، ثم قال: اللَّهُمَّ اغفرْ لي، أو دعا؛ استُجيبَ له" رواه البخاري(٥).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٢١) برقم (١١٦٣) كتاب الصيام. باب فضْل صوم المحرَّم.

(٢) رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٥٧) برقم (١٣٩٨) أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله. باب تحزيب القرآن. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (٣/ ٣٩٨).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٤/ ٤٦٩) برقم (٨٠٠٢). والحديث حسَّنه الألباني بمجموع طُرُقِه كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٤٨٣).

(٤) رواه النسائي في سُننه (٣/ ٢٥٨) برقم (١٧٨٧) كتاب قيام الليل وتطوُّع النَّهار. باب مَن أتى فراشه وهو ينوي القيام فنام. المجتبى من السُّنن= السُّنن الصُّغرى للنَّسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النَّسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن النَّسائي (٤/ ٤٣١).

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٤) برقم (١١٥٤) كتاب التهجُّد. باب فضْل مَن تعار مِن الليل فصلَّى.



٣- أن يفتتح تهجُّدَه بركعتَينِ خفيفتَينِ؛ لفِعْلِ النبي ﷺ، ففي حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت:" كان رسولُ الله ﷺ إذا قام من الليل ليُصلِّي؛ افتتح صلاته بركعتَينِ خفيفتَينِ" رواه مسلم(١).

٤- المداومة على قيام الليل، وإذا فاته قضاه؛ لحديث عائشة- رضي الله عنها- عن النبي ﷺ قال:" خُذُوا من الأعمال ما تُطيقون، فإنَّ الله لا يملُّ حتَّى تملُّوا" رواه البخاري ومسلم(٢)، ولحديث عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: قال لي النبي ﷺ: يا عبد الله؛ لا تكُنْ مثلَ فلانٍ كان يقوم اللَّيل، فترك قيام اللَّيل" رواه البخاري ومسلم(٣).

٥- يُستحَبُّ له أن يُوقظَ أهلَه؛ لأنَّ النبي ﷺ كان يُصلِّي من اللَّيل، فإذا أوتر قال لعائشة- رضي الله عنها-:" قومي فأوتري يا عائشة" رواه مسلم(٤)؛ ولحديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" رحِمَ الله رجلًا قام من الليل فصلَّى، ثم أيقظ امرأتَه فصلَّتْ، فإن أبتْ نضحَ في وجهها الماءَ، ورحِمَ الله امرأةً قامتْ من الليل فصلَّتْ، ثم أيقظتْ زوجَها، فإن أبى نضحَتْ في وجهه الماءَ" رواه أبو داود وابن ماجه(٥).

ولا أطيبَ من كلام الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى:﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٦).

قال الشيخ السعدي: هذه مُقابَلةٌ بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالِمِ والجاهل، وأنَّ هذا من الأمور التي تقرَّر في العقول تبايُنُها، وعُلِمَ علمًا يقينًا تفاوتُها، فليس المعرِضُ عن طاعة ربِّه، المتَّبع لهواه، كمن هو قانتٌ أي: مُطيعٌ لله بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهو أوقات اللَّيل،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٣٢) برقم (٧٦٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٤) برقم (١١٥١) كتاب التهجُّد. باب بدون ترجمة. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٤٠) برقم (٧٨٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٤) برقم (١١٥٢) كتاب التهجُّد. باب ما يُكرَه مِن ترْكِ قيام الليل لمن كان يقومه. ومسلم في صحيحه (٢/ ٨١٤) برقم (١١٥٩) كتاب الصيام. باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرَّر به.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥١١) برقم (٧٤٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل، وأنَّ الوتر ركعة، وأنَّ الركعة صلاة صحيحة.

(٥) رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٣٣) برقم (١٣٠٨) أبواب قيام الليل. باب قيام الليل. وابن ماجه في سُننه (١/ ٤٢٤) برقم (١٣٣٦) كتاب إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها. باب فيمَن أيقظ أهله من الليل. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (٣/ ٤٥٠).

(٦) الزمر ٩.



فوصَفَه بكثرة العمل وأفضلِه، ثم وصَفَه بالخوف والرجاء، وذَكَرَ أنَّ مُتعلِّقَ الخوفِ عذابُ الآخرة، على ما سلف من الذُّنوب، وأنَّ مُتعلِّق الرجاء رحمة الله، فوَصَفَه بالعمل الظاهر والباطن[١].

وهذا الإمام أحمد بن حنبل كان يُحيي اللَّيل هو وغلامُه، والإمام الشافعي قسَّم الليل أثلاثًا، وأبو حنيفة كان يُصلِّي عامَّة اللَّيل، وأبو هريرة- رضي الله عنه- قسَّم اللَّيل أثلاثًا هو وزوجُه وخادمُه، فإذا قام هذا نام هذا، وكانت له في النَّهار اثنتا عشرة ألف تسبيحة، ويقول: إنَّما أُسبِّحُ بقدر ذُنوبي[٢]، وقيل للحسن البصري: ما بالُ القائمين بالليل مِن أحسنِ النَّاسِ وجوهًا؟ قال: لأنَّهم خَلَوا بالرحمن فألبسهم من نوره[٣]، وقال تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾[٤].

والخلاصة: أن يحرص المسلم على قيام اللَّيل، وأن يعلم أنَّ قيام اللَّيل شرفٌ له، ورِفعةٌ لدرجته، وأنَّه يُكسِبه نورًا يملأ قلبه، ويسطر على صفحة وجهه، وهو أمرٌ يحتاج لمجاهدة النَّفْس ومُكابَدة القيام حتَّى يُحِسَّ بلذَّته، كما ورد عن بعض السَّلف أنَّه كان يقول: كابدتُ قيام الليل عشرين سنة، واستمتعتُ به عشرين سنة.

بكى الباكونَ للرحمنِ ليلًا ... وباتوا سُجَّدًا لا يسأمونا
بِقاعُ الأرضِ مِن شوقٍ إليهم ... تَحِنُّ متى عليها يسجدونا[٥]

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٢٠).

(٢) تاريخ الإسلام (٢/ ٥٦٦).

(٣) رواه الدينوري في المجالَسة وجواهر العلم (١/ ٤٤٦).

(٤) عبس ٣٨- ٣٩.

(٥) يُنظَر: الرِّقَّة والبُكاء لابن أبي الدنيا (ص ١١٢). الرِّقَّة والبُكاء، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار النشر: دار ابن حزم، بيروت- لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.



٣٠ صفر

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ (سلامة الصدر)

لا شكَّ أنَّ بعثة مُحمَّدٍ ﷺ أعظم حدثٍ عرفه التاريخ، فببعثته ﷺ صلحت الأرض، وزكت النفوس، وتطهَّرت القلوب، وعُرِفت الحياة على حقيقتها، والغاية منها، كما صلحت أحوال النَّاس وتعاملاتهم.

إنَّ البريةَ يومَ مَبعثِ أحمد نَظَرَ الإِلَهُ لَهَا فَبَدَّلَ حَالَهَا[1]

ومن أعظم اهتماماته ﷺ إصلاح القلوب؛ لأنَّ القلب هو مَلِكُ الأعضاء وقائدُها، لذلك علَّق الرسول ﷺ صلاح الجسد كلِّه بصلاح القلب، ففي حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنهما- قال ﷺ:" ألا وإنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب" رواه البخاري ومسلم[2].

ونجاةُ العبد يوم القيامة مُرتبِطةٌ بسلامة قلبه، قال تعالى عن إبراهيم- عليه السلام-: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾[3]، وقد نهى النبي ﷺ عن التدابُر؛ فقال ﷺ:" لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثٍ" رواه البخاري ومسلم[4]، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: قيل: يا رسول رسول الله؛ أيُّ النَّاسِ أفضلُ؟ قال: كُلُّ مخمومِ القلبِ، صدوقِ اللِّسانِ. قالوا: صدوق اللِّسان نعرفه؛ فما مخمومُ القلبِ؟ قال:" هو التَّقيُّ النَّقيُّ، الذي لا إثم فيه، ولا بغي ولا غلَّ ولا حسد" رواه ابن ماجه[5]، والمخموم: مِن خممتَ البيت إذا كنستَه، أي: أنَّه يُنظِّفُ قلبَه في كلِّ وقتٍ.

وهذا هو حال صحابة رسول الله ﷺ الذين أثنى الله على أخلاقهم وجعل لهم نصيبًا من الفيء والغنائم، فقال سبحانه: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ وهم المهاجرون ثم

---

(١) يُنظَر: دروس الشيخ عائض القرني (٣/ ٦، بترقيم الشاملة آليًّا). دروس الشيخ عائض القرني، المؤلف: عائض بن عبد الله القرني، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم (٥٢) كتاب الإيمان. باب فضْل مَنِ استبرأ لدينه. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩) كتاب المساقاة. باب أخْذ الحلال وترْك الشبهات.

(٣) الشعراء ٨٨- ٨٩.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٩) برقم (٦٠٦٥) كتاب الأدب. باب ما يُنهَى عن التدابُر والتحاسُد. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٣) برقم (٢٥٥٨) كتاب البر والصلة والآداب. باب النَّهْي عن التحاسُد والتباغُض والتدابُر.

(٥) رواه ابن ماجه في سُننه (٢/ ١٤٠٩) برقم (٤٢١٦) كتاب الزهد. باب الورع والتقوى. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (٩/ ٢١٦).



قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[١]، وهم الأنصار، فيا لها من شهادة حيث يكشف الله عن مكنون صدورهم، وأنَّ نفوسهم طاهرة وقلوبهم سليمة.

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[٢]، قال العلَّامة السعدي- رحمه الله-: فتبقى قلوبهم سالمة من كلِّ غلٍّ وحسدٍ، مُتصافية مُتحابَّة، ذلك على تزاوُرهم واجتماعهم وحُسْنِ أدبِهم فيما بينهم، في كون كلٍّ منهم مُقابِلًا للآخر، لا مُستدبِرًا له، مُتَّكئين على تلك السُّرر المزيَّنة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر[٣].

قال ابن القيِّم- رحمه الله-: الفرْق بين سلامة الصدر والبله والتغفُّل؛ أنَّ سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشرِّ بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعمل به، وهذا بخلاف البله والغفلة فإنَّها جهلٌ وقِلَّة معرفة، وهذا لا يُحمَد إذ هو نقصٌ، وإنما يَحمَدُ النَّاسُ مَن هو كذلك لسلامتهم منه، والكمالُ أن يكون عارفًا بتفاصيل الشَّرِّ سليمًا من إرادته، قال عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه-: لستُ بِخِبٍّ ولا يَخدَعُني الخِبُّ، فكان أعقلَ مِن أن يُخدَعَ، وأورعَ من أن يَخدَعَ[٤].

وسلامة الصدر من أسباب دخول الجنَّة؛ فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: كُنَّا جلوسًا مع الرسول ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنَّة؛ فطلع رجلٌ من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلَّق نعليه في يده الشمال، فلمَّا كان الغد؛ قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجلُ مثل المرَّة الأولى، فلمَّا كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجلُ على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- فقال: إنِّي لاحيتُ أبي فأقسمتُ ألَّا أدخلَ عليه ثلاثًا، فإن رأيتَ أن تؤويني إليك حتَّى تمضي؛ فعلتَ، قال: نعم، قال أنس: وكان عبد الله يُحدِّث أنَّه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من اللَّيل شيئًا، غير أنَّه إذا تعارَّ وتقلَّب على فراشه ذَكَرَ الله عزَّ وجلَّ وكبَّر حتَّى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أنِّي لم

---

(١) الحشر ٨-٩.

(٢) الحجر ٤٧.

(٣) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٣٢).

(٤) الروح (ص ٢٤٣- ٢٤٤). الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسُّنَّة، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن قيِّم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.



أسمعه يقول إلَّا خيرًا، فلمَّا مضت الثلاث ليالٍ وكدتُ أن أحتقر عمله؛ قلتُ: يا عبد الله؛ إنِّي لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجرٌ، ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرَّاتٍ:" يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنَّة" فطلعتَ أنت الثلاث مرار، فأردتُ أن آويَ إليك لأنظرَ ما عملُك فأقتديَ به، فلم أركَ تعمل كثيرَ عملٍ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلَّا ما رأيتَ، قال: فلمَّا ولَّيتُ دعاني فقال: ما هو إلَّا ما رأيتَ؛ غير أنِّي لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشًّا، ولا أحسد أحدًا على خيرٍ أعطاه الله إيَّاه. فقال عبد الله:" هذه التي بلغتْ بك، وهي التي لا نُطيقُ" رواه أحمد(١).

ولقد كان الرسول ﷺ أحرص الناس على سلامة قلبه، فكان يقول في صلاته:" اللَّهُمَّ إِنِّي أسألُك الثباتَ في الأمْر، والعزيمةَ على الرشد، وأسألُك شُكْرَ نعمتِك، وحُسْنَ عبادتِك، وأسألُك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وأسألُك من خيرِ ما تعلم، وأعوذ بك من شرِّ ما تعلم، وأستغفرُك لما تعلم" رواه النسائي(٢)، وكان ﷺ يقول:" لا يُبلغْني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ شيئًا؛ فإنِّي أُحِبُّ أن أخرجَ إليكم وأنا سليمُ الصدر" رواه أبو داود(٣).

وسلامة الصدر سببٌ في قبول الأعمال، ففي الحديث أنَّ النبي ﷺ قال:" تُعرَضُ الأعمال كُلَّ يوم اثنين وخميس، فيَغفرُ الله عزَّ وجلَّ في ذلك اليوم لكُلِّ امرئٍ لا يُشرِكُ بالله شيئًا؛ إلَّا امرأً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: أنظِروا هذَينِ حتَّى يصطلحا" رواه مسلم(٤).

قال الفضيل بن عياض- رحمه الله-: ما أدرك عندنا مَن أدركَ بكثرة نوافل الصلاة والصيام، وإنَّما أدركَ عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنُّصح للأُمَّة(٥).

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٠/ ١٢٤) برقم (١٢٦٩٧). والحديث حسَّن إسناده الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (١/ ٢٦).

(٢) رواه النَّسائي في سُننه (٣/ ٥٤) برقم (١٣٠٤) كتاب السَّهو. نوع آخر من الدُّعاء. والحديث ضعَّفه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن النَّسائي (٣/ ٤٤٨).

(٣) رواه أبو داود في سُننه (٤/ ٢٦٥) برقم (٤٨٦٠) كتاب الأدب. باب في رفْع الحديث من المجلس. والحديث ضعَّفه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (١٠/ ٣٦٠).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٧) برقم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة والآداب. باب النهي عن الشحناء والتهاجُر. وأوَّله: "تُفتَحُ أبوابُ الجنَّة يوم الاثنين ...".

(٥) يُنظَر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٥).

والخلاصة: أنَّ سلامة الصدر مِن أدلِّ العلامات على الإيمان، وهذه العبادة العظيمة تُطلَب بالدُّعاء؛ فهو من أعظم الأسباب، وفي دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾(١).

كذلك بحُسْنِ الظَّنِّ بالنَّاس ، وحمْلِ الكلامِ على أحسنِ المحاملِ، قال عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه-: لا تظُنَّ بكلمةٍ خرجتْ من أخيك شرًّا، وأنتَ تجدُ لها في الخيرِ محْمَلًا(٢).

كذلك: بالبُعْد عن مُجالَسة النَّمَّامين الذين ينقلون الكلامَ بغرضِ الإفسادِ، فهم رسل إبليس في الوقيعة بين النَّاس.

كذلك: بإهداءِ الهديَّة، فإنَّ لها أثرًا في تطييب الخواطر، وإذهاب وغر الصدور، وقد جاء في الحديث: "تهادوا تحابُّوا" أخرجه البخاري في الأدب المفرد(٣).

كذلك: بالرِّضا عن الله وبما قَسَمَه للعبد، فهو من أفضل العلاج.

كذلك: باستحضار ما لسليم الصدر عند الله من الأجر العظيم، والنعيم المقيم.

لما عفوتُ ولم أحقِدْ على أحدٍ ... أرحتُ نفسي مِن هَمِّ العَدَاوَاتِ(٤)

---

(١) الحشر ١٠.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في مداراة النَّاس (ص ٥٠). مداراة النَّاس، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقِّق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم- بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٠٨) برقم (٥٩٤). والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح الأدب المفرد (ص ٢٢١). صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦ هـ)، حقَّق أحاديثه وعلَّق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

(٤) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٧/ ١٢٢، بترقيم الشاملة آليًّا).


تمت بحمد الله